خليل فاضل

شادي عبد الموجود

قصص

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٧

شادي عبد الموجود

شادى عبد الموجود
قصص

خليل فاضل

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : **أحمد خالد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٣٧٣٨

الترقيم الدولي: **977-351-356-4**

إهداء

إلى أمي ...
ذات الشعر العاجي

فانتازيا الحلم والمرارة

كائنـــات خاليـــة
من الضـــوء

صاحت المغنية، وصاح المستمعون معها:

"أحلف بسماها وبترابها،
أحلف بدروبها وأبوابها،
ما تغيب الشمس العربية،
طول ما انا عايش فوق الدنيا"

كـــان اللحـــن حماســـياً للغاية، رتمه عال ودقاته قوية، جمله قصـــيرة، يســـري مـــندفعاً وسط الحضور ذوي الياقات البيضاء والبذل السوداء.

كـــررت المغنية الأغنية؛ فقاطعها رجل يميل إلى البدانة في منتصـــف العمـــر، وصل صوته الجهور إلى كل بقعة في القاعة الفسيحة، وكأنه يمسك ميكروفوناً خفياً، صاح:

▪ غابت الشـــمس العربيـــة، ورحمـــة أمي غابت، راحت وما رجعتش، ماعرفش أصلاً إذا كانت طلعت ولا لأ، وبعدين إيه

عايش فوق الدنيا دي؟! ... أنا مش عايش يا هانم!

أنـــا ميّت متحسَّر ومتكسّر ومتنيّل بألف نيلة، أنا تحت الدنيا، تحت خط الفقر والمصحف الشريف.

أنـــا اتســـللت هنا لابس بدلة أبويا المرحوم. دخلت مع الخدم والســـــفرجية. ماشــافونيش الـــتحف بتوع الأمن، الـــSecurity الـــبهوات همّ وجهازهم العبيط اللي بيزمّر ع الفاضي...طظ فيكم كلكم! ...

جاء رجال كثيرون من مختلف أنحاء القاعة المكتظة بالهوانم والألماســات. حملوه وكتفوه. كان ثقيلاً عليهم، لم يقاومهم. أمسك بيده وردة حمراء بلدي وزعوها خارج القاعة ليهديها الرجال إلى نســائهم. لـــم تكن لديه امرأة، ولا كلبة أو قردة أو قطة أو نملة. جلجلت ضحكته في الردهة الخلفية. عزفت الموسيقى مرة أخرى، وفـــي حماســـة أكبر وأخطر. أعادت المغنية الكوبليه في إصرار شديد على الاستمرار، كما أن الفرقة أصرّت على أن تعزف حتى آخـــر وتـــر، دقّ الطـــبّال الشيك في عنف، وردد البهوات خلف المغنية:

(ما تغيب الشمس العربية ...

طول ما انا عايش ....

لم تكتمل الجملة المغناة، توقف الحشد وكأنه في حداد، جاءهم صـــدى خطـــير تسلل من كل السمّاعات غازياً التكنولوجيا والـــ

:Security

▪ الشمس العربية غابت. غابت يا ولاد الكلب، وأنا قلتلكم. انتم مش عايشين فوق الدنيا. انتم سفلة، وبتحبوا تصدقوا نفسكم!!

جلـــس الحضور على كراسيهم. أمسكوا بتذاكر الحفل. تهدّلت رؤوسهم على صدورهم، ثم غطّوا في نوم عميق.

تهـــدّل رأس الســـيدة التي ما لبثت أن بلغت الأربعين. تهدّل على صدرها. تنكس ولم ترفعه، قالت في صوت خفيض:

▪ أنـــا عندي اكتئاب، اكتئاب مزمن، معشق في كل حتة في جسمي وعقلي. داخل في تجويف قلبي ومعشش في كياني، اكتئاب وســـخ مـــا لوش حلّ، عارف لّما شفت صدّام حسين وهمّ بيطلعوه مـــن الحفرة أشعث الشعر، كأن عمره ١٠٠٠ سنة ولسّه طالع من الكهـــف. كإنه واحد تاني استنسخوه، وبيفلّوه بالضوء وهم لابسين جوانتـــيات طبـــية بيضـــا عشـــان ما يتعدوش. صدّام الديكتاتور الحرامـــي الحقـــير. أنـــا كنت باكرهه كره الموت، لكن لما شفت المـــنظر ده، قلبـــي اتقبض، ووشي اسوّد. اتنزعت مني كرامتي. فتحـــت الشيش. دوّرت على الشمس العربية. ما لقيتهاش. وقعدت علـــى الســـرير وفضـــلت أضحـــك أضحك بشكل هيستيري. من ساعتها وأنا عندي الاكتئاب الوسخ ده.

*   *   *

قلّبـــت المرأة السكر في الشاي وهي واقفة كعمود الصواري

في مطبخها العتيق، ندّت عنها ضحكة خفيفة وهمهمت للسكر:

▪ هـوّ انـت مـا بـتدوبش ليه يا سكر؟! .... مُقاوم، ولا مغشوش والاّ إيـه؟!

ولـم يـردّ السـكر. استقر في قاع الكوب الذي أشرق بلون الشـاي الأحمـر. ارتشفت رشفة فاقشعرّ وجهها وكأنها قد تذوقت الحـنظل. كانت وحيدة. ماتت أمها وهي في الثالثة، ومات أبوها وهـي فـي الثالثة والثلاثين. اتخطبت مرتين وانفسخت الخطوبة مرتيـن. طمعـوا فـيها الرجالة رغم تواضع أنوثتها، وقهروها النسـوان رغم محاولاتها للصلح معهم. سمعت صوتاً يناديها من غرفة النوم:

▫ يا وردة. يا وردة يا وحشة انتي فين، أنا مستنيكي!

تفزّعـت وانتفضت، ثم تماسكت وصاحت بصوت عال علّه يزيدها شجاعة:

▪ مستنيني إيه. وفين؟ انت مين أصلاً؟!

ضـحك الصـوت ضـحكة الواثق العاشق. أطلّت من جانب حيطة المطبخ على باب غرفة النوم، وجده يطلّ برأسه، يغمز لها، وقـد وضع على شعره جِلْ مستورد، وقسمات وجهه تبدو نضرة، فاح عطره، تمهل ثم قال:

▫ مـش عارفانـي يا وردة؟! دا أنا عشيقك من يوم ماكنتي تلات سنين. رحتي فين؟!

مش أحنا كل يوم بننام مع بعض؟!
أنا الاكتئاب يا وردة، نسيتيني والاً إيه، هاتي الشاي وتعالي.
خلعــت لــبس الخروج. ارتدت قميص النوم الأحمر الملعلع، وضعت أحمر الشفاه والبودرة والكحل، مشطت شعرها وتراقصت أمام المرآة، دخلت إلى الفراش البارد، تغطي نفسها وتتأوّه كامرأة مُجرّبة رغم أنه لم يمسها ذكر قط.
وقفــت البنت التي في منتصف العشرينات، تحاول أن تطاول ســقف الغــرفة بطولهـــا، ارتاحت على الأريكة المستطيلة ذات التطريز الخاص. شهقت وكأنها تدعو الحياة، همست:
- ■ عارف؟!
ردّ بسرعة:
- ▫ هه؟!
- ■ أنا باحس بالذنب إذا تركت الصلاة، لكن لا أحس بالذنب إذا نمت مع رجالة؟
شقّت هدومها وصرخت، فطار طيرُ وارتفع ثم حطّ على سلك الكهرباء العاري، انتفض ألف مرّة ثم مات متخشباً.
* * *
تخشّـــب جســـد أم هـــند والشيخ يمسك برقبتها، يصرخ في العفريت: اطلع اطلع.
أخذها زوجها سيد إلى المستشفى.

قالت له:

▪ لزمـــتها إيـــه المصاريف دي يا سيد، دكاترة ومستشفى وشيوخ؟! والنبي ودّيني عمرة مولد النبي.

راحـــت العمـــرة وعـــادت، اشترت عروسة المولد وأكلتها، ضـــمّتها الأحـــزان والأشجان، تقلّبت بها المواجع، توترت واسْودَّ وجهها، قالت لزوجها:

▪ أنـــا يا سيد بآكل صابون!! بحاول أغسل نفسي من جُوّه حرقـــت كـــيماويات الصـــابون تجاويف فمها. اختفت من عينيها البهجة. لبست العدسات اللاصقة بلون شفتشي.

أطرق سيد، كتم غيظه وغضبه وقلّة حيلته.قامت لتجلس إلى جواره على الكنبة، قالت في صوت مليء بالإغراء:

▪ ســـيّد، هاتلي ريسيفر أشوف بيه الدنيا واتلهي فيها أحسن من أي علاج، دي هيفا بترّدّ الروح...حتى للنسوان.

*　　*　　*

وقفـــت البنـــت على كعبيها بالحذاء العالي جداً، المدبب جداً، صاحت:

▪ آه باحـــبه، بـــاموت فيه، مش (وجدي) أكبر مني بـــ ٣٨ ســـنة، (طـــظ). الدهن في العتاقي. بيفكرني ببابا بالضبط، حتى مشيته زيُّه، بنهرب مع بعض لشاليه العين السخنة ونعيش حياتنا، أنـــا عارفة إنه بينام مع تلميذاته، وإنه راجل وسخ، بسّ في عينيّا

زيّ الســكر، نفسي نفسي، أكبّر صدري كده، وأبقى زي هيفا، لو ده حصــل هــآكل شهد. هاعمل شغل ما حصلش، يمكن خطيبي يرجع من العراق، مش فاهمة شغل إيه ده اللي راح له. على فكرة خطيبــي ده كان بيحبّ صدّام حسين، ومايعرفش إني على علاقة بوجدي، وحتى لو عرف. رجالة معفنة وما عادش عندها نخوة.

* * *

صدحت المغنية من الراديو من خلال إذاعة مجهولة:
(... ما تغيب الشمس العربية)...
صاح الرجل الماشي في الشارع: روبابيكيا!
أذن الفجر، فقامت وردة لتغتسل.
مشّط الاكتئاب النائم معها حاجبيه ثم لعّبهما في احتراف.

خــبط رجــال الــSecurity على أبواب كل الشقق، وكأنهم المسحراتية صائحين:

■ اصح يا نايم!

قال عبده النجار:

□ بس احنا مش في رمضان يا جماعة؟!

ضحكوا ضحكة جوفاء. قال كبيرهم:

■ وبتناقش كمان يا ابن الكلب؟!

وضعوا كل السكان في البوكس.
انطلقت السارينة مع صوت المغنية لتكمل الكوبليه:
(........ طول ما أنا عايش فوق الدنيا)

مارس ٢٠٠٥

رقبة عبد الفتاح المائلة

كانــت رقــبة عبد الفتاح البواب مائلة ناحية اليسار، مسنودة علـى الحـائط الرطـب وهو نصف مستلق على السرير البارد، نصــف مُغطىّ بالبطانية الكالحة، رأسه متجهة ناحية الحائط الذي يصنع شبه مكان تحت السلم. غطَّ في نوم عميق دون أن يُسمع له نفـس، لم تكن له عادة الشخير، وجهه كان نوبياً منشرح الملامح بسـيط القسمات. كان عبد الفتاح بواباً بمعنى الكلمة، ولم يكن من رجـال الأمـن الـSecurity، كما في البنايات المتشابهة الممتدة التي تديرها شركات يمكن أن تكون أجنبية، كان بواباً بحق وحقيق لعمـارة سـكانها شـاخوا ومات أكثرهم وهو نائم، دائماً ما كانوا يموتـون في نوبتجيته خلال ساعات نومه قبل انبلاج الفجر. كان بوابـاً لـباب حديد متين يغلقه قفل كهربائي أتوماتيكي يتحكم فيه السـكان من كل الشقق بأزرار، غير أن اليد تفتحه من الداخل ولا تغلقـه أبـداً. فـيدخل من يدخل. ويموت من يموت، ويخرج من يخـرج، علـى قدميه أو محمولاً على خشبة. كان سكان العمارة

وروادهـــا يعرفون. عبد الفتاح ويحبونه، مهما كذب ومهما حاول إقناعهم بأنه يقظ، فها هو جالس بجانب الأسانسير، وها هو يراقب الباب، على الرغم من أن عينيه كانتا مدفونتين فى مقلتيهما، أوحى إلـــى الجمـــيع بأنـــه (صـــاحي، والله صاحي)، وأيضاً يراقب كل الأشياء.

دخـــل عـــبد الســـتار أفـــندي الموظف في الجمارك بطوله وعرضـــه، شاربه المحفوف وجبينه العريض، نحلت أكتافه وقلت حركته منذ أن أصيب بالسكرٍ والضغط، فتح باب المصعد وأغلقه، وعبد الفتاح البواب نائم، حَطَّ في الدور الخامس، تقدم حتى وصل إلى شقة أبيه، فتحت له أمه وهي مكدودة، تلم شعرها بمنديل اتسخ من الهمّ، احتضنتنته وقبلته، أحست به ثقيل الصدر متثاقل الخطوة، خـــاوي النفس وخال من التعبير، غير أنه في تقدمه إلى الصالة، انفرجـــت بعض أساريره عند لقاء أبيه الحاج، لكنها كانت انفراجة مزيفة مصطنعة مفبركة تشبه ما بعد عمليات التجميل. كان الحاج يجلس على الكنبة الممتدة مرتدياً جلابية مخططة وطاقية من نفس القمـــاش مخططة أيضاً، كانت له نفس الابتسامة المجهدة المزيفة المصـــطنعة الخارجـــة من كَدَّ وكمد عظيمين. انحنى عبد الستار أفـــندي على يد أبيه وقبلها. أغرورقت عينا الأب، مال إلى الأمام قلـــيلاً ثـــم تـــنهد قليلاً، تابع بعينين زائغتين التليفزيون وهو يبث بـــرنامجاً سخيفاً تحاور فيه المذيعة الممتلئة المطرب الشعبي وهو

يـــرتدى بذلـــة وحـــذاء مـــن نفس لون طقم الصالون (هكذا قال المطـــرب). نظـــر الحاج إلى جلابيته وطاقيته، ندَت عنه ضحكة خفيفة ممتلئة بالألم والعجب والدهشة، كان ابنه بجواره يجلس على طرف الكنبة احتراماً واقتراباً من أبيه المنهك.

قال عبد الستار أفندي لأبيه:

- ضروري يابا تلبس عشان نروح للدكتور.

كـــان يخفى عليه أنهما سيذهبان إلى المستشفى، لم تكن لدى الحـــاج أي قـــوة لارتـــداء الملابس الأفرنجية، ولم تكن لدى عبد الســـتار أي نـــية للضغط عليه. استند كل منهما على الآخر، على الـــرغم مـــن أن صحة الإبن كانت أفضل، إلاَ أن خطوات الإبن ووالده وظلهَما على الأرض صَعّب التفريق بينهما، كل منهما كان محفوراً في الزمن، تتآكل منه الأطراف والحواف، نعم تتآكل إلى حدَ بعيد.

نـــزلا مـــن التاكسي، عكزَ كل منهما على الآخر. على باب المستشفى جلسَ رجل يشبه عم عبد الفتاح البواب، لكنه كان داخل صـــندوق زجاجـــي. جلس منتصباً على كرسي مرتفع وكان يبدو وكأنه يراقب المكان، بدت عيناه زجاجيتان، شعره مصفوف بعناية إلـــى الخلـــف، تترك حواف المشط تترك مجاريها بوضوح على فـــروة رأســـه، بدا شبيهاً بمارلون براندو. اقترب عبد الستار من الـــرجل، كـــان هو المنوط بالأمن لكنه لم يكن برجل الأمن. كان

موظفـــا مـــثل باقي الموظفين بالثقافة والفنون والطب، مثل الدعاة ورجـــال الكنيســـة والأوقـــاف والجمارك. سأله عن الطريق إلى الجـــرَاح، فلـــم يرد. كان نائماً مفتوح العينين كالتمثال، هَزّه عبد الســـتار هـــزة خفيفة؛ فانتفض وزعق وقال في صوت عال أشبه بعسكري الدرك أيام زمان:

- هااااااااااااااه .. أيوه .. مين هناك.. إنت مين وعايز إيه!!

ضـــحك عـــبد الستار ضحكه حقيقية من قلبه، وسأل الرجل الزجاجي

- تعرف مارلون براندو؟!

اخرج الرجل مشطه العتيق، أعاد تسريح شعره للمرة الألف، مصمص شفتيه قال:

- لأ... مين مارلون براندو ده!! خواجة من اللى كتروا فى مصر جاى يعالجنا!!

ضـــحك عـــبد الستار مرة أخرى، ظلَّ ممسكاً بيد أبيه، كانت ضحكته شفافه بريئة، كالطفل الذي يكركر فى أغنية محمد فوزي (مامـــا زمانها جاية .. جاية بعد شوية .. جايبة لعب وحاجات .. هق هق هق هـــاااااااااااااق).. قال عبد الستار للرجل:

- مـــارلون براندو ده ممثل أمريكاني عبقري، رفض ياخد الأوسكار احتجاجاً على اضطهاد الأمريكان للهنود الحمر.

أخـــرج الـــرجل مشطه مرة أخرى، مشط شعره وشاربه ثم

صاح في عبد الستار:

- إنت عايز إيه يا أفندي إنت؟!

سـأله عبد الستار عن الدكتور؛ فدّله؛ فسحب والده معه حتى وصلا إلى نهاية الممر الموحش ذي الإضاءة الثلجية الباردة.

بعد الفحص وَجّه الجراح الطويل النحيل الكلمات الرصاصية إلى عبد الستار، وجهها إلى قلبه في سرعة البرق:

- أبوك عنده غرغرينا ورجله لازم تتقطع من تحت الركبة. اتفضل بَرّه فهمه واكتب الإقرار .... يلاّ.

انحـنى عـبد الستار بعينين مغرورقتين بالدمع، شرح لأبيه المسـألة. لم يهتم الرجل. (مافرقتش معاه خالص)، صمت قليلا ثم قال:

- اقطع .. اقطع يا بنى.

وقف عبد الستار خارج غرفة العمليات، وفجأة خرج الجراح الطويـل النحـيل، وعلى وجهه كمامة، يداه داخل قفاز الجراحة المشدود، تغطى قامته ملابس غرفة العمليات الخضراء، صاح:

- إنـت يـا أفندى تعال هنا .. اسمع. إحنا مسلمين. رِجْل أبوك أهيه .. لازم تتدفن. خدها وروح الصحة.

كانـت الممرضة قد لفتها فى شاش أبيض، نشع عليه الدم في بقع تشبه رسومات الورد البلدي الأحمر على ملايات العرايس في الفلاحين، ناولتها لعبد الستار في يده. وضعها في شنطة (هاندباج)

وهــو ممتلئ بالهلع والخوف، كانت دموعه تسح إلى داخله، تسقيه رُطــبا جنــياً، وكأنـــه مليون شعور يدخلون في بعضهم البعض، مضـــى في طرقات المستشفى لا يجد من يستند عليه. كان يتوقف للحظـــات ثــم يســير. تخيل مرة أنه يحمل آثاراً مسروقة. ومرة أخـــرى نـــذور السيد البدوي. ومرات وكأنه يحمل دنياه وآخرته، همومـــه وأحـــزانه، أو كأنـــه يحمل أوراق الجمارك كلها، وجوه المسافرين وأختام الدولة: النسر والخالص والذى بلا معنى.

كـــان في كل اللحظات على يقين أنه يحمل رجل أبيه. سمع خطوتهـــا وهى تطلع السلالم، سمعها وهى تركل الباب. وسمعها وهى تخطو حاملة البطيخة والعيش السخن. سمع الرِجْل تتكلم من داخـــل الشنطة. كان لها دَوِىَ. صُراخ. أنين. تصدح أحيانا وكأنها سيد درويش، وأحياناً أخرى تئن وكأنها فريد الأطرش، كانت ثقيلة ثقـــيلة للغايـــة، لدرجة أن عبد الستار اضطر إلى أن يجلس على الأرض، وأن يـــتمهل. خرج من الباب الرئيسي، استوقفه الرجل الشبيه بمارلون براندو من داخل الصندوق الزجاجي وسأله:

- الشنطة دي فيها إيه ياأفندي.

ابتسم عبد الستار ابتسامة الوزراء في البرامج الجديدة، وهم محرجون ومتبججون في بعض أفراد الجمهور المشاغب الذي ما فتئ يستخدم مساحة الحرية إلى آخر جزء فيها. أجاب عبد الستار في تؤدة:

▫ دى رجل أبويا ... يا مارلون براندو.

كان الرجل الزجاجي ذو العينين الزجاجيتين داخل الصندوق الزجاجي، متعوداً على خروج ناس بحقائب فيها أطراف، ومتعوداً على دخول ناس على قدميها والخروج بقدم واحدة، أولا يخرجون إطلاقــا. ركــب عــبد الستار التاكسي، ذهب إلى مكتب الصحة وخلّــص كل الإجراءات، دفن الرجل وصلّى عليها. كان مشوشاً يتوق إلى الراحة، ذهب إلى بيته في باب الخلق. استقبلته زوجته، كانت حاملاً في ابنه الأول. قبّلهَا على جبينها. بكى في عنف شديد حــتى ســقط على الأرض. رشّت على وجهه الماء، سقته الماء المحلــى بالســكر وساعدته حتى وصل إلى غرفة النوم ثم ارتمى على الفراش، رقد على ظهره يتأمل سقف الغرفة ولم يتوقف عن النشــيج .اســتأذن عــبد الستار زوجته فوزية في أن يبيع بعض تجهيزات شقتهما. احتضنته وقالت :

▪ أنت ابني وأبويا، وأبوك أبويا وضنايا يا عبد الستار، إنت بتتكلم فى إيه؟!

* * *

اشــترى عــبد الستار لوالده أرقى طرف صناعي في مصر كلهــا، خرج معه من البيت الكبير إلى بيته الصغير ليستقبلا ولي العهــد. كان صوت الطرف الصناعي الغالي الأنيق غريباً بعض الشــيء. لم يكن نشازًا لكنه كان مدبباً. صوته عميق القرار وكأنه

يحـــاول الـــتعرف علـــى أعلى الساق، على الرِجْل وعلى البلاط، وعلـــى جـــوْ البيت الرطب، لكن حتماً كان والد عبد الستار أكثر إشـــرقاً وأفضل حالاً، ربما لأنه ينتظر أول أحفاده، وليس لأنه قد استبدل الغرغرينا بالخشب والحديد.

مـــا إن وصـــلا إلى البيت الصغير، حتى كانت دقات الساق الصـــناعية تتزاوج مع دقات عبد الستار على الباب، فتحت أخت فوزيـــة الـــباب، زغـــردت، خرجـــت الست الحكيمة بولي العهد ووضـــعته بيـــن عبدالستار وأبيه، حملاه معاً وكأنما يلتصقان به، يـــتحدان ويـــتوحدان بـــه، مع حياته المقبلة التي ـــ ربما من باب التمني فقط تكون مختلفة ـــ يعني لا أحسن ولا أوحش. بكى القادم الجديد بشدة، صرخ حتى أحمرَّ وجهه وصار مثل الكبدة. هدهدته أمه وراح كل واحد إلى حال سبيله.

* * *

تمشـــت الحاجة في الصالة الكابية الضوء، تروح وتجئ في عصـــبية محســـوبة، فـــي الخلفية كان التليفزيون شغالاً، من باب الونَـــسَ فقط لا غير، اختلطت في تجاويف أذنيها أصوات مشوشة لمذيع وممثل، أتى الصوت اللزج ضاحكاً في ميوعة، كانت كلماته مشوشـــة قلـــيلاً (قُلـــتلى بصراحة انت بتحب الستات، ما تخافش مـــراتك مـــش بتـــتفرج علينا)، تلتها ضحكة رجالي رقيعة يعقبها صـــوت أخـــنف (آه .. ظبطتنى، أنا بموت في الستات.....!!)،تلي

ذلك قهقهة ممتزجة بضحكة ماجنة... ثم الإعلان.

في الغرفة الداخلية كان الضوء أكثر اصفراراً:

جلس عبد الستار بجوار والده بالعرض على حافة السرير في مواجهـــة التلـــيفزيون، الـــذي كان يذيع مباراة حاسمة لكرة القدم، كانـــت كتف الوالد بمحاذاة كتف الابن، صاح الحاج في ابنه بلهفة طفـــل عصبي (شايف، شايف الكورة فين؟!، آآآآخ لو حَدَ موجود فـــي المكـــان ده. كان أكيد جاب جون). كان الحاج كامل الوعي، يقظاً وضحوكاً، نزل على ظهره على السرير في جزء من الثانية، وفـــي لحظة خاطفة، مات.....نعم مات ... توفى، دون احتضار، دون حشـــرجة ودون أعـــراض أو مقدمات. انتهت المباراة وظل التلـــيفزيون يذيع خطاباً لشيخ منفعل يتحدث عن الهواء الذي يمكن أن يطـــيّر العـــباية،أنهى القـــول بـــأن (ده مش حجاب)، استمر التلـــيفزيون فـــي إرســـاله، كان حديثاً مملاً كالعادة عن(المشروع القومـــى لكـــل شيء) وعن (هيصة الديمقراطية)، اختلطت برامج القـــنوات التي تذاع على تليفزيوني الصالة وغرفة الحاج، رقدت الجـــثة مُســـجاة علـــى ظهرها، جاء طبيب الصحة، كذلك الأهل والجيران.

* * *

لم تنطلق أي صرخات. كان الضوء الأصفر والضوء الكابي يفترشـــان المكان. نهايات الطرقة، الأبواب الصدئة المفاصل، وقع

الأقــدام يجتمع وينفصل، ينفك ويلتئم. خرجت الجثة بعدما غُسلت. كــان الــبكاء لــدى النسوة مكتوما، لكن نسى الناس في مُصابهم التليفزيونيــن مفتوحيــن يصــيحان بالغث والحديث البطئ، المُمل والمكــرر. لــم ينفعل عبد الستار، ربما تجمدت دموعه في قلبه، ربمــا كتمها في حشاياه، وربما كان مشغولاً بالتفكير.. صلّى على جــثة أبيه مع الناس. دفنها مع الساق في نفس المكان ثم وقف في قلــب المقابــر... يصرخ .... مالت رقبة عبد الفتاح البواب أكثر ناحــية اليسار، استندت أكثر على الحائط الذي صار أكثر برودة، غــطّ الــناس فــي نــوم عميق للغاية حتى أذّن المؤذن لصلاة العصر.

خرجــت خشبات تحمل موتى إلى القبور المترامية الأطراف ... ولم تندّ عن الناس التي تحملها أي صرخة.

مارس ٢٠٠٥

أغنية للشعب العظيم

دخلــت العــربة الكــارو مسرعة، في أناقة بالغة ومحسوبة، أتقنها البغل والعربجي ــ تماماً ــ لدرجة أنها كانت شبيهة بعربة رمسيس الذهبية. كان البغل مزداناً بجرس ووردتين. الجرس على غُــرته والوردتــان على جانبى الأذنين. معروفاً كان ــ البغل ــ هجيــناً تزوجــت أمه المهرة ذات الحسب والنسب في إسطبلات الأعــيان، من ذكر حمار فقير في غفلة من الجميع، وبترتيب من فلاح لئيم أصبح هو المالك للبغل الأنيق فيما بعد. كان البغل يشبه أبــواه إلى حد ما، في أذنيه الطويلتين وعُرفه القصير، ذيله الذي توجد به خصلة شعر طويلة في نهايته كما عند الحمار أبيه، وأخذ مــن أمه بعض سمات مالكيها من عنجهية وصلف وكبرياء، ومن أبــيه بعــض صــفات مالكــه من تخطيط ولؤم وإعداد محسوب للمستقبل في سرية تامة، كما ورث عن أمه الفرس لونها وشكلها، قوتهــا وضــخامة جســمها، وعن أبيه الحمار صغر رأسه، دقة قوائمــه، وصغر حوافره، فصار هجيناً متميزاً بصحته وقوته حدة

وبصــــره. ورغـــم كـــل ذلك ـــ ربما ـــ أحس البغل بعقدة نقص بالغـــة من الحـــمار والحـــصـــان، ربما لأن الحمار كان حماراً خالصاً، سلالة نظيفـــة لا تشوبها شائبة، وربما أيضاً لأن الحصان حكمـــته عقدة التفوق لأنه خيل، يتبع الفرسان والأمراء، وعربجية الحناطـــير المنتشرين في مناطق البرج والنيل والجزيرة، يفسّحوا الســـيّاح والعشاق وأسر الريف الميسورة في زيارتها الشهرية إلى القاهرة.

دخلـــت العـــربة الكارو، وكأنها عربة الملكة اليزابيث، تزهو بتمـــيزها، ألوانهـــا وحـــرفة صناعتها، دخلت في سرعة محسوبة قدّرها العربجي والبغل بإتقان.

فـــتح العســـكري بهيئـــته الريفـــية وبزّته البيضاء، أزراره النحاسية وشارته الصفراء البوابة الحديد المطلية حديثاً بلون أبيض روتينـــي غطـــىّ علـــى الصدأ وعوامل الزمن. جرّ نصفها الثاني أمامه موظف أمن في ملابس مدنية (بدلة صيني شعبية)، عادة ما يلبســـها السُعاة ورجال الدولة أيام عبد الناصر تعبيراً عن التزامهم بالاشتراكية.

وقفـــت العربة الكارو في المنتصف تماماً، أمام الفتحة الممتدة بيـــن الأعمـــدة والساحة المؤدية إلى المسرح العريق (هكذا قالت المذيعـــة الضابطة حروف الكلمات)، على الرغم من أن المسرح كـــان حديـــثاً بنته بلاد الوطواط في إطار ما بنته بعد أن التهمت

النيران دار الأوبرا العتيقة، أوبرا الخديوي إسماعيل التي احترقت منذ ثلاثين سنة، احترقت في بضع ساعات وعلى بعد خمسة أمتار منها كان مركز الإطفاء في القاهرة وفي مصر كلها، بَنَتْ المسرح العـــريق بـــلاد الوطـــواط وكأنهـــا تعـــوض دولتنا العظيمة عن إهمالها....

دخـــل الـــرجال والنساء الأرستقراط (همس أحدهم مستنكراً التعبـــير: هـــوّ لسّه فيه أرستقراط)، دخل الحشد (النوفو ريتش)، ومعهم مذيعات وممثلات ونجوم مجتمع، رجال أعمال وشخصيات هامـــة، ضـــحك أحدهم وكان قصير القامة يرتدى باروكة تخفى صـــلعته تمامـــاً، ضحك وهو ينفض ذبابة حلّت على وجه البغل، تمشى منتشياً مع امرأته المستقيمة العود، الصلبة القوام، قال:

- بكـــره هنبني لأمريكا مسرح في لويزيانا ذكرى لإعصار كاترينا.... هه هه هه .

نظرت اليه امرأته شزراً، لوت بوزها في تعجب وقالت:

- لأ وأنت الصادق بكره طماطماطيا العظمى هتبنى مسرح تعرض عليه كل الفرق مسرحية: من منا حديقة حيوان.

- كتم السائر إلى جوار الزوجين ضحكته وسأل من جاوره الطريق:

- من منا الحيوان...؟!

هزّ البغل رأسه ؛ فاهتزت الوردتان ودق الجرس على جبهته

دقـــة أشبه بالإنذار. انتظم القوم السائرون في بذلهم وفساتينهم في إتجـــاه المسرح العريق، يثرثرون ويتفكهون، يميلون على أكتاف بعضـــهم البعض، ويكونون في مجموعهم كتلاً من الدهن، أصواتاً متـــنافرة كحشـــرجات المرضى فى القصر العينى القديم، ممتزجة بوشوشات الأجهزة اللاسلكية لرجال الأمن.

ظن رجال الأمن المنتشرون في الثنايا والكواليس، المرتدون أزيـــاء مدنـــية، ملكية، رسمية وعسكرية. ظنوّا أن العربة الكارو والـــبغل والعـــربجى جـــزءاً من العرض المسرحي، (حاجة كده أوريجيـــنال). تـــثري المكان والزمان، تزيد روعة ملكات الجمال وصـــيفاتهن، عارضات الأزياء وكدابين الزفة، وهكذا .. كان ــ رجـــال الأمـــن ــ يظنون دائماً أمراً آخر، لكن حرم ذلك المسرح العـــريق كـــان مـــثل حرم البحر، وحرم النيل وحرم الجامعة أيام زمان، لا يجوز ولا يمكن أن يقف فيه بغل أو حمار أو حصان أو عربجـــي أو عربة كارو أو حتى عسكري، توهموا رغم إدعائهم الدائـــم أنهـــم لم يتوهموا، توهموا أن المسألة مجرد ديكور، أو أن الموضوع وقتي وسيزول ... نعم.. مثلما ظن الشعب بعد احتلال اســـرائيل لسيناء سنة ٦٧ أن اليهود سيرحلون في الصباح الباكر، لكـــنهم قعدوا على قلبنا ١٥ سنة ... المهم ... انتبه رجال الأمن. أمن المسرح العريق إلى أن العربة الكارو قاعدة، والبغل قاعد ... نـــزل العربجـــي فـــي هدوء شديد، أخرج بعض العلف من كيس

أبيض مطرز بورد متفتح زاه وبدأ يؤكل البغل.

تقدم بعض رجال الأمن من ذوى البذلات الافرنجية والكرافتات البمبي اللامعة المخططة منها فيها، بوجوههم المضوية في هدوء حُسدوا عليه، توجهوا إلى البغل أولاً، ربتوا على عنقه، ثم إلى العربجي الذي كان أنيقاً على غير العادة، يرتدى جاكت كاكي نظيف مكوي على جلابية زاهية ناصعة بدت وكأنها بلا لون، كان نادر الكلام ... إذا تكلم كان حديثه المقتضب منمقاً مختصراً ودالاً، أحياناً ما كان لا مبالياً، وأحياناً أخرى متعمد الاستعباط، كانت علاقته بالبغل والعربة الكارو خاصة جداً، فيها حميمية شديدة، بدا وكأنه أتى من داخل كل رجل فى البلد كلها، وكأنه كان يجاهد لإخفاء رقته ورُقيه، خشية أن يظنوا فيه ضعفاً، لكنه في كل الأحوال كان منسجماً مع نفسه، مع البغل ومع العربة الكارو، كان إبنا باراً لثقافته، ولكن بشكل جديد (نيولوك New look)، أخرج البايب وأشعله، ثم نفث الدخان فى الهواء ونظر إلى محدثيه وكأنه ممثل عبقري في لحظة تأمل إبداعي، قالوا له في صوت خفيض، وكأنهم خائفون، يستحون النطق في حضرته، وكأنها تلك الكاريزما الخاصة به قد أخذت لُبّهم وسحرتهم؛ فاستمروا واستمرأوا لعبة الحلم والحالة الذهنية بين النعاس والنوم، أدركوا أن كل شيئ لا بد وأن يتم في هدوء ... (مادام دخل لغاية هنا يبقى فعلاً بغل مهم وعربجي أهم)، ربما كانت العربة الكارو

أثـــرية، أو علّهـــا فعـــلاً كانت عربة رمسيس الذهبية متنكرة في صـــورة شـــعبية، وقد تكون حاصلة على شهادة الايزو أو جائزة الدولـــة الـــتقديرية أو ..أو. وقـــد.. وقد، وقد يكون لدى العربجي تصريح من وزارة الداخلية أو الآثار أو الثقافة ... وربما ـ أيضاً ـ كـــان كـــل هـــذا غير صحيح. وأن البغل والعربجي والعربة الكـــارو، قد دخلوا خلسة أو صدفة أو خدعة !! ... تقدم المسئول الأول عـــن الأمـــن وطلـــب من العربجي تفسير دخوله إلى هذا المكـــان، فلـــم يرد، أمسك العربجي بالبايب في عوجة طبيعية، ثم نفـــث الدخان مرتين، فمرّت سُحبه أمام وجهه، أكسبته هيئة غير عادية، وعلى الرغم من أنه كان يلبس لبدة الفلاحين المعروفة، إلاّ أنـــه كـــان أقرب إلى (جيمس دين) أو (بيل كلينتون)... تقدم أحد رجال الأمن المساعدين إلى البغل، هَزّه فلم يتحرك ولم يتبرّم ولم يهـــتز. توجهـــت ثلـــة مـــن موظفي الأمن المحترفين إلى العربة الكـــارو، فحصـــوها مـــن كل الجهات، بالكلب الشمام ومجسّات المـــتفجرات، وضـــعوا المـــرآة الخاصـــة ذات الـــذراع الطويلة والانحناءة الخاصة تحت مؤخرة البغل، فبانت لهم تداوير خصيتيه وجزء من عضوه الذكري، لم يستمر الأمر كثيراً حتى تبرز البغل تـــبرزاً محســـوباً مـــتكوناً، غطّـــى يد الحارس الكشاف، وذراعه والمرآة؛ فابتعد إلى الخلف ومضى يبرطم ويشتم ويلعن.

أحـــدث تـــبرز الـــبغل المفاجئ هرجاً ومرجاً، علت همهمة

الجوقــة الأمنــية ووشوشاتها اللاسلكية وصارت زعيقاً وصياحاً ومــناداة، استدعوا الشرطة الرسمية ذات المركبات الداكنة اللون والبوكســات المقبضـــة للروح بلوحاتها المعدنية الزرقاء الخاصة بمركــبات الحكومة، صاح أحد رجال الأمن نافراً عروق رقبته، ضاماً شفتيه كالمنافقين عندما يهتفون، وكشهود الزور وهم يحلفون كذباً وبهتاناً:

▪ يا جماعة .. يا جماعة.. هاتوا الونش .!!!

احمر وجهه، نفث العربجى الدخان المعطر مرتين ولم يحرك ساكناً، انتفض قائد الجوقة الأمنية قائلاً:

▫ هــو يعــنى الونش هيشيل إيه ؟! هنكلبش إيه ؟؟ رجلين البغل والاّ عجل الكارو ؟!

تســاؤلات شتى دارت في رءوس الحشد، اشتعلت المناقشات الحامــية، انشغل بعض الجمع الراقي الداخل إلى المسرح العريق بــالحدث، تكونت مجموعات بدأت باثنين وانتهت بحوالي عشرة، انتهــت كلها بأن تقدم كبير رجال الأمن إلى العربجي وهو منشغل بنفــث دخــان البايــب والطبطبة على رأس البغل وكتفه، اللعب بالوردتيــن على جانبى أذنيه، وشخللة الجرس، بالهيصة والاهتمام ... وأيضاً بالمكان (حرم المسرح العريق)، كان يمضغ العلف فى مــتعة وكأنـــه يمضغ الكفيار، يلوكه في سعادة وكأنه يلوك اللبان (التشــيكليتس) المســتورد.. همــس كبــير رجال الأمن فى أذن

العربجي:

▪ ممكـــن تتفضـــل تخرج إنت والبغل ده.. والعربية الكارو دي .... زي ما دخلتم وإلاّ....

أطـــرق العربجى ناظراً بعيداً عن عينى محدثه، متجاهلاً إياه بحـــق، تظاهر بالصمت، لكنه كان يدندن بأغنية قديمة تقترب من المـــوّال وتدور حول معنى (والندل له عوزه)..... استفز المشهد أحـــد مســـاعدي الكبـــير (وهم دائماً أكثر حماسة وأكثر حماقة، أصغر فى السن وفي الخبرة)، زغد العربجى في كتفه ثم شتمه... لـــم يحـــرك العـــربجى ساكناً، أخرج من جيبه موبايل حديث جداً مـــزوداً بكامـــيرا .. سرعان ما التقط لمهاجمه صورة، ثم أجرى مكالمـــة قصـــيرة لم تتعد الثلاث كلمات !! تراجعوا خطوات إلى الخلف لم يعدّوها ولم يحسبوها، نعم، تراجعوا جميعهم إلى الخلف ولم يتقدموا.

* * *

تقدمـــت المطربة العربية تشدو بأعذب الألحان، خرجت مـــن داخل قلب على شكل ديكور فظ الملامح خشن الحواف، أخذ بيديها رجلان مسرحيان شبيهان برجال الأمن، لكن بذلتاهما كانتا داكنتي اللون تزينهما على الياقة العريضة شارة تشير إلى عضوية حزب أو جماعة أو نادي أو فرقة. غنّت المطربة أغان قديمة عن الوحـــدة بيـــن مصر وسوريا، منها على ما نظن (أنا واقف فوق

الأهـــرام ... وقدّامـــي بساتين الشام)، وكذلك تلك الأغنية الشهيرة (مـــن الموسكي لسوق الحميدية)، طلبوا منها أغنية حزينة أو حتى رثاءً بغير غناء تنعى فيه الوزير السوري المنتحر، لكنها تجاهلتهم وآثرت أن تجامل الملك وتغني له، تستسمحه في أن تعيد نداءها له راجية منه أن يعطى لشعبه المزيد، كانت القاعة مكتظة بخليط من العرب الخليجيين والمغاربة والشوام حتى اليمن السعيد كان ممثلاً، وموريتانا وجزر القمر والصومال ... تصاعدت روائح البارفانات الحريمي والرجالي ممتزجة برائحة العرق والضجر ؟!

كـــان الضجر في خارج القاعة قد تزايد إثر مكالمة العربجي المجهولـــة، وإثر غموضها أيضاً، وإثر الهزّة التي أحدثتها طريقته فـــي الاتصـــال، وكذلك إثر تراجع الجوقة الأمنية ... فجأة ودون ســـابق إنـــذار امتلأت الساحة الكبيرة بين المسرح العريق بجموع محتشـــدة، انتشروا في المكان في فوضى منظمة، بدوا أناساً غير الـــناس. مجموعـــات مـــن الثكالى والكسالى والثمالى والمجاذيب والمبرشـــمين، ماسحي الأحذية وبائعي الفلّ والياسمين والمناديل، المقعدين والمعوّقين، العميان والخصيان، المجانين وأشباه الرجال والنســـاء، رجال بدت ملامحهم تشربت قسوة وظلماً وبؤساً. نساء اخشوشـــنت قسماتهم حرماناً من المتعة والفسحة والبهجة، أطفال شوارع بوجوه معفرة عجوزة هاربة من أهل أكثر تعاسة، يبيعون البيبسي في القطارات ويشربون الخمر تحت الكباري، مجموعات

لا تقــل عــن خمســة ولا تزيد عن خمسة وعشرين من الحزانى والمرضـــى والمهرجين ورواد عربات الفول المزمنين، تكوينات بشــرية مــن البلياتشــو والأقــزام ومرضى الجزام والمشوهين، الزبالين والناجين من الكوارث والمصائب، رجال بعمائم وخناجر وســيوف ومسدســات، جوعــى وعطشــى ومومسات، موظفين متســولين بــورق مضروب وأختام نسر، مرتشون صغار وقطاع طــرق ونســاء مُعــيلات، خــدم وســفرجية وقرداتية، غوغاء متصارعين دائمين مع فكر الغوغأة، بعضهم جاء على ظهر حمارٍ أبتر، والآخر جاء مترجلاً حافياً بعد أن طاف المدن... لكنهم كلهم في مجموعهم كانوا على وعي تام وخفي بالمسألة. دخلوا من نفق المــترو الفــاتح علــى بــاب المسرح العريق، ومن كل الجهات والــبوابات الســطحية، كــانوا ســاخطين ورافضين لكل شيء، واضـــحين لا يخلطوا الأوراق. كونوا دائرة كبيرة ملأت الأرض وســدت فضــاء الســماء، تحلقوا حول العربجي والبغل والعربة الكارو.... بسرعة فائقة وفي لحظة خاطفة، اختفت الجوقة الأمنية ودخلت إلى باحة المسرح العريق .. كانت المطربة العربية تغني منسجمة مع روح الأغنية وكلماتها، وكان الجمهور اللامع الساطع المدندش المبتهج يغني معها:

نعم يا حبيبى نعم
أنا بين شفايفك نغم
أيامي قبلك ندم
و أيامى بعدك عدم
نعم يا حبيبى نعـــم

(تذكروا حسين رياض بكل وجاهته وغلبه وصوته المشروخ المـــتأثر وهـــو يشـــجع الولـــد المصـــوص الرومانسي المريض بالبلهارســـيا وهو يغني)... كانوا كلهم حلوين ومغندرين يتمايلون يمنةً ويساراً. فجأة انتشر بينهم رجال الأمن؛ فخرجوا جميعهم في لحظة من الأبواب كلها... في نفس الوقت دخل الدهماء والغوغاء والـــرعاع يتقدمهم العربجي في هدوء شديد، يرشد البغل المزدان بكـــل الألـــوان، والذي كان يعرف طريقه ولا يحتاج إلى دليل أو إشـــارة، صعد بخطوات مدروسة إلى خشبة المسرح، يجر العربة الكـــارو، وقف العربجي مبتسماً نصف ابتسامة، أمال رأسه ناحية الضـــوء الفضي، وفجأة أمتلأت قاعة المسرح العريق كلها بالناس أصحاب العربجي، انطلقت الزغاريد وعلت .. نهضت النسوة من بين الكواليس ليضعن على العربة فرش وعفش العرس ... ألحفة ســـاتان أزرق وبمبي وشفتشي، مواعين نحاس وألومنيوم .. دقت الطـــبول وعلـــت أصـــوات المزامـــير، ارتفعت الأيادى بالدفوف

لتطاول ارتفاعات الأعمدة المنتشرة في المكان والسقف العالي جداً الآخذ شكل القبة، جلس العروسان على العفش والفرش، كانت بنت زي القمر بمنديل أوية بترتر، ورجلين متحنية، خدود حمرا ووشم ثلاثي طولي على الذقن، حركات لا إرادية كطفل بدأ المشي بعد الحبو، بجوارها جلس العريس يتنطط مشيراً إلى أماكن محدودة في القاعة ليتوزع الشربات بقسطاس. بدوا سذجا وبسطاء وطيبين، شالوا همّهم ورموه برّه، لم ينتبهوا إلى أن المذيعة ذات الصدر الأكبر لم تزل في الخلف، أمامها المغنية تبدو على وجهها علامات الخوف والدهشة والصدمة، ابتسمت المذيعة ابتسامتها المنافقة المعهودة وبدأت ترص الكلمات دون تفكير:

- نرحب بالشعب العظيم في المسرح العريق، نهدي ألف تحية للعروسين.

انطلقت الزغاريد مرة أخرى مزمجرة، كانت ضربات الدفوف من هولها تهزّ المكان وترجه، صمتت المذيعة وبدأت المطربة تغني:

نعم يا حبيبى نعم
أنا بين شفايفك نغم
أيامي قبلك عدم
وأيامى بعدك ندم
نعم يا حبيبى نعم

لـــم يـــدرك أحد إن كان الغناء للملك أم للعربجي، من منهما الحبيـــب الذى يقال له نعم نعم، من هو ذلك الأسطورة التى تكون بيـــن شفايف الشعب نغم، من هو ذاك الذى كانت الأيام، كل الأيام والســـنين قبله عدم .. من هو المخلص والحارس والمعشوق الذى تكـــون أيـــام الـــناس كلهـــا علـــى اختلافها بعده ندم .. ترى من يكون....؟؟؟

توجه الرجلان اللذان أتيا بالمطربة من داخل القلب وسحباها من يديها، كل من يد ووراءهما المذيعة، ثم اختفوا بين الكواليس.

مـــن بيـــن الكوالـــيس خـــرج البلياتشو يتدحرج، رأسه على الأرض وســـاقيه النحيلتان المزدانتان للسماء، يتشقلب بسرعة، ثم وقف مكان المطربة وقال في صوت رخيم:

لا تحسبوا ابتسامتى بينكم فرحاً
فالمرء عند طلوع الروح يبتسمُ
لا تحسبوا رقصاتى بينكم طرباً
فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

نظـــر الدهمـــاء إلـــى بعضهم البعض ثم طالبوه بالتنحي عن مكانـــه لمذيعـــتهم التى كانت أكثر جسارة، طالبتهم (ولعة الوالعة) بـــالهدوء والتروي، قرأت عليهم نشرة الأخبار، ثم خلعت رداءها

فـــبان لحمهـــا الأبـــيض يرفل في زى أحمر، رقصت عند أقدام العروســـين والـــبغل والعربجي، مضت البنت الوالعة الطالعة من الـــنار الوالعـــة الناجية من قطار الصعيد تكمل وصلتها .. سرت همهمـــة بيـــن الحاضرين، كان الوقت بين الغسق والفجر، أدركوا واستبصـــروا ذواتهـــم، اكتشفوا فيها آفاق جديدة مكنتهم من نسيان الماضـــي، والبدء من جديد، صار الفجر والغسق في نعش واحد، كانت اللحظة الغامضة سرية للغاية، رهيبة، انسحبوا فيها كلهم من القاعـــة واخـــتفوا كمـــا جاءوا، ترجلّ العربجى ناظراً في ساعته الـــرولكس، لَمّع حذاءه الفخم ثم امتطى صهوة البغل جاراً العربة الكـــارو بـــالعفش والفرش والعروسين، مضى بها مسرعاً سرعة محســـوبة، مارقاً كعربة رمسيس الذهبية من نفس البوابة التى فتح نصـــفها نفس العسكرى الأبيض وموظف الأمن ذى البذلة الشعبية ... عـــند أول ضوء كانت حشود جنود الأمن المركزي بخوذاتهم وبـــزاتهم السوداء جداً وأحذيتهم الغليظة جداً، بدروعهم وعصيهم يدخلون إلى قاعة المسرح، وعلى الرغم من تعودهم على الوقوف إلاّ أنهـــم لـــم يتمكنوا من الانتشار إلاّ بالجلوس على نفس مقاعد الباشوات والدهماء، جلسوا منتصبين بنصفهم الأعلى وعصيهم إلى جوارهـــم، متعبيـــن، منهكين، مشدودين، وأيضاً خائفين، هم دائماً عبـــيد، مأموريـــن، لا يـــدرون ما يريدون أو ما يراد بهم، قليلوا التعلـــيم أو أمـــيون، لا يبتهجون ولا يزعلون، لكنهم أدركوا أنها

مهمـــة خاصة فى مكان خاص، خاص جداً ... ولما أنار المسرح بشـــمعة نظـــر كل منهم إلى الآخر وابتسم ابتسامة عرجاء، ظنوا أنهـــم يحرســـون الحفـــل أو سيقبضون على المجهول .. أو ربما ســـينهالون بعصيهم الغليظة على الأشباح التى تسكن ذلك المسرح العريق. لكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث.

دخلـــت المطربة العربية النحيفة إلى قلب المسرح، من داخل القلـــب الديكور الردئ المنظر والمظهر شاحبة الوجه للغاية، تجرأ أحدهم وصاح من وسط القاعة:

(أنـــا كل ما أقول التوبة ترمينى المقادير) يا عيـــ ـــن .. يا ليـــ ـــ ـــ ل ....

لم تنتظر ! صرخت من جوفها وصدرها وحلقها لتشق عنان السماء:

- لأأأأأأأأأأأأأأه ... هيّ أغنية واحدة بس وهترددوها ورايا..

نعم يا حبيبى نعم
أنا بين شفايفك نغم
أيامى قبلك عدم
و أيامى بعدك ندم
نعم .... يا حبيـــبى نعم
....

غـــنى الجُـــند وراءها، كانت شفاههم غليظة للغاية، أصواتهم مبحوحة، جوعى ومرهقين، لكنهم وبكل غلاظتهم، كانوا نغم.

ولمـــا دوّى صـــوت كالـــرعد، قـــاموا من قعدتهم وأشهروا عصـــيهم، دبـــوّا بأحذيـــتهم الغليظة على الأرض الخشبية فدوى صوت فظيع، كان الصوت الذي كالرعد صارخاً في عنف آتياً من بيـــن الكوالـــيس، كانـــت العـــربة الكارو والبغل والعربجي، تمرّ كالطـــيف والزلزال، كالبرق والرعد، كالسحاب وكالطير الأبابيل. ولما تحركوا ليهجموا عليها .. اختفت وتبخرت ... جروا وراءها خـــارج المســـرح ... اندفعـــوا في جماعاتهم شبه المسلحة على الســـاحات الخضراء والرخامية بين المسارح العريقة، واختفوا من نفس الفتحات التى جاء منها الغوغاء.

* * *

على شاطىء النيل، ساعة الفجر التالي في اليوم التالي، خلت الدنـــيا من المارة تماماً، تبختر البغل وشخلل الجرس على رأسه، اهـــتز الـــورد على جانبي أذنيه، تمهل إلى جواره العربجي، نفث دخان البايب مرتين مدندناً :

نعم ...يا حبيبي نعم ...

أخـــرج مـــن جيبه نوتة صغيرة شبيهة بتلك التي يسجل فيها المخبرون ملاحظاتهم، كتب بخط أنيق.

▪ أيهـــا الوطن الجميل أنا لست نغماً بين شفايفك، ولا أنت

نغماً بين شفايفي، ها هي أحمالنا وأوزارنا وضعناها سويـــاً على ظهـــر العربة الكـــارو.

جـــرّ البغل العربة، جرّ العربجي البغل، كانت الأحمال ثقيلة ثقيلة للغاية، لكنهم جرّوها، تهادوا على الخط الضيق المرسوم بين كورنـــيش النـــيل، وساحات الفنادق الشاهقة ... تلك التي كانت قد اعتدت على حرم النيل ... فعلاً .

أغسطس ٢٠٠٥

وشوشات

أحلام ناهـد

جلسـت علـى كرسـيها مـرتاحة تطالع زوجها بوجة بارد وملامـح صـامتة، لا تحرك أي من أجزاء جسدها، تنصت إليه صاغية وهو ينفعل.

قـال سمير وهو يهم إلى الأمام بجسده الضخم، متحركا قليلاً إلـى طرف كرسيه. قال في كلمات مضغوطة أن ناهد امرأة غير مسـتقرة، وأنهـا رغم كل ما يفعله لا تقدره، لأنها لا تحبه، وأنها امـرأة حالمـة تعـيش في عالم مصنوع من وليد توفيق المغني وحسين فهمي الممثل.

خرجـت ناهد عن صمتها المحسوب، لم تتحرك من كرسيها بعد، نطقت كلماتها بوجه بارد:

▪ نعـم أنـا أعشـق فـي وليد توفيق وحسين فهمي الرقة والوداعة، وأكره فيك الفظاظة والتوحش.

تجهـم وجـه سـمير قليلاً، مال ظهره إلى الخلف قليلاً على

الرغم من أن مقعدته كانت ما تزال على طرف المقعد، قال:

▫ إنــك تريدين رجلاً يكاد يلمس بالكاد شفتيك فتعتقدين أنه يقــبلك، رجل يقف وراءك يكاد يلمس ظهرك فتظنين أنه يحتويك، إنــك امــرأة غريــبة. دعيني أعترف لك بأنني أفضل عنك هياتم الراقصة الممتلئة ؟ نعم ...أفضلها ألف مرة.

نهضــت ناهد من على كرسيها المواجه لكرسي سمير، بانت علــى وجهــه بعض علامات الترقب لما يمكن أن تفعله زوجته، تمهلــت قلــيلاً، أعطته ظهرها، خاطبت الحائط والصور المعلقة وقالت في صوت متهدج:

▪ ســمير.. أنــا لا أكــرهك، لكني أحبك مثل المرحوم بابا بالضــبط، أنت مثله في كل شئ، تمشي مثله وتصلي مثله، فكيف أنام معك وانا مرتاحة مستجيبة.

عقــدت الدهشــة لسان سمير. كانت ساقة اليسرى محنية إلى الخارج قليلاً، يداه تقبضان على ساعدي المقعد، وكان وجهه بارداً يــبدو وكأنه خاليا من الانفعال، مصدوماً وغير مصدق أن المرأة التــي تــزوجها منذ عشرسنوات كانت ترى فيه أبيها، وأن نومها معه كان من قبيل الواجب فقط لا غير. وأن الأولاد الثلاثة قد أتوا بالصدفة.

بلــع ريقــه وقــام، حزم حقيبته حتى امتلأت. قال لناهد في اقتضاب أنه ذاهب لزيارة أمه زيارة طويلة.

لـــم تودعه، ولم تتحرك من مكانها، غير أنها بعد أن تأكدت مـــن رحـــيله، خلعـــت ملابسها القطيفة المزركشة، تركتها على أرضية الصالة تغطي حذائها.

كـــان الأولاد الـــثلاثة عند أمها، وكانت وكانت تدرك أن ليل الشـــتاء بـــارد وقارص وطويل. مضت إلى غرفة النوم. استلقت علـــى الفراش المتسع، فرشت نفسها عليه، مدت ساقيها وفتحتهما حـــتى لامســـت قدماهـــا زاويتي السرير السفليتين، مدت ذراعيها ويديها إلى زاويتي السرير العلويتين، تنهدت في عمق ثم أغمضت عينيها.

كان ضوء الغرفة خافتا، وكانت تنصت إلى أغاني عبد الحليم حـــافظ، تخيلـــته يأتي ليمر فوقها، فوق شفتيها برقة. تأملته يدخل ويخـــرج مـــن النافذة، شاهدت ضوء الفجر يلون الستائر البيضاء بزرقة خفيفة، ولمحت في طرف الغرفة بنطلون سمير معلقاً على الشـــماعة، منتصـــبا بالحـــزام داخله كحرف الألف، ضحكت في صـــوت عال لم تتعوده، فعاد الصدى من الجدران الأربعة. غطى علـــى استرســـال أغاني عبد الحليم الرقيقة. تمرغت في أغطيتها الحريـــرية، مستمتعة بالكسل اللذيذ، ممسكة بصدرها تضغطة في رقـــة، تدفـــن رأســـها الوسادة مغرقة وجهها البارد بدموع ساخنة محولة الثلج فيه إلى ماء، تنصهر عند ذؤابات شعرها شموع كانت قد أطفأتها في الليل.

رفعت رأسها في تلك اللحظة، وعند فتحة باب المواربة رأت صورة أبيها بجسده الضخم يطل عليها ويسألها:

- مالك ...مالك يا ناهد!!

صرخت فاختفت الصورة .

انحنـــت لتدفن وجهها مرة أخرى في الوسادة، طالعت صورة ســـمير بجانـــب الأبـــاجورة المغطـــاة، بوجهه العريض وقميصه المفتوح وعينيه الحائرتين، وفمه المنفرج قليلا.

لـــم تعـــرف إن كان يريد تقبيلها في رقة وليد توفيق، أم أنه سيلتهمها كما تعود وكما رفضت دائما؟؟؟.

مارس ١٩٩٠

(عندما تمشط امرأة شعرها فإنها تقلد حركات دوران النجوم)

المرأة التي تمشط شعرها...

مشــطت شــعرها وتركــته يــبحر عليها يتمدد أمام نحرها ويسترسل على صدرها، تتأمله على ساحة المرآة أمامها ثم تخرج عن جلستها المتأملة، تقوم من قعدتها المسترخية، لتقف في هيئتها النحيلة، تتمشى على ارضية الغرفة الخشبية، تتهادى كنخلة باسقة متكــبرة متعافية تدق الأرض بكعبيها النحيلين. تدلف إلى الصالة المــباحة أمـــام ضوء النهار المبهر المتوهج المتكثف في مستطيل نهاري وضّاء يدخل بحجم مساحة النافذة العلوية المفتوحة للشمس للهــواء وللصـــمت الخارجـــي يدخل مع النسائم الى البيت يشقه ويجرحه.

وقفــت ونظرت إلى مقعد آخر على طرف مستطيل الضوء الشمسي وفي نهاية مرمى النافذة للخارج جلست عليه مثلما جلست علــيه علـــى مقعدهـــا أمـــام المرآة، ركبتاها مثنيتان على ساقيها الطويلتين على جانب، وعلى استحياء وكانها في حضرة من يهمه الأمـــر سمحت للشمس أن تنفذ إلى ثنايا شعرها والى مسام جلدها،

تدغـــدغ كـــيانها كلـــة وتشـــيع الدفء المادي إلى داخلها المتوتر المتقلب.

جاء صوت كامل من الداخل، متسائلاً عن علب الطعام وعن الفـــتّاحة وعـــن الخبز، جاوبته متمهلة متململة وهي بعد ساكنة لم تـــتحرك مـــن مقعدها. وضع طعامه أمامه على الطاولة الممتددة وشـــرع يـــأكل ويمضـــغ ويسألها من بين لقماته المتعددة عن سر ضيقها وتعبها.

كانـــت قلـــيلة الكـــلام خجولة هامسة. فخرجت العبارات من شـــفتيها بطيـــئة مـــتأزمة تسقط على شعراتها المسترسلات على صدرها، وتتبعثر على أناملها الطويلة على رجليها.

رفـــت عنها نظرة الى خارج النافذة المفتوحة فأكلت الشمس ناظـــريها فـــرأت الألـــوان برتقالية حمراء، ورأت الدنيا سوداء، فاشاحت بوجهها وتمهلت بوجها وتمهلت مطيلة النظر إليه وهو ينهي طعامه.

قالت :

▪ ألـــم تلحظ ذلك الجار المتعمد النظرة، الجارح الوقفة يطل من شرفته على مقعدي ويسترسل في تأملة الوقح يوماً بعد يوما.

مسح شاربه وشفتيه. ثم قال:

▫ ما لك صرت سيئة الظن بالناس يا ليلي!

همهمـــت وحركـــت مقعدها بحيث تكون في منتصف الضوء

تململت في جلستها بحيث تعتدل في قامتها وتطرد الاستحياء عنها، خالقـــة الـــتحدي في صدرها، شامخة الى الأمام تتقد انتظاراً للشر الآتي.

قالت:

▪ مـــالك انـــت يـــا كامل صرت كالخروف تحبني كالدمية الجمـــيلة وتحرص عليّ حرصك على أزرار قميصك الذهبية، ولا تعطينـــي منك الا امتلاكك الأناني، أين مني تلك الغيرة المحمومة المحبوبة التي أقرأها في عيون الناس!؟

ازاح كـــامل الأطباق وبقايا الطعام. تقدم الى مستطيل الضوء الشمســـي، وأطـــلّ على الشمس وعلى الدنيا وعلى ليلى، كانت قد عـــادت إلى جلستها الأولى، ساقاها على جانب وكعباها يلامسان الأرض وشـــعرها هادئ مستكين، كانت يدها اليمنى على بطنها، وكانـــت تـــتوجع دون صوت. رفعت يدها اليسرى بمشط وردي كبير، مشطت به شعرها الطويل.

كـــان الضـــوء الشمســـي قد اختفى وكان الليل قد حلّ عنيفاً وعميقاً وكان كامل قد ذهب الى عمله الليلي يحرس المكان المهم، أمـــا الجار الوقح فلقد كان يطل برأسه من بين النجوم التي غارت من ليلى وهي تقلد حركتها.

مارس ١٩٨٨

الأغنية

جلست تتكفأ في راحة كسولة على صينية الأرز، تسقط عليها أشـــعة الشمس المطلة من الشباك تنقيه، تتأمله، تفرزه، تخرج منه الدخـــيل المكســـور تســـقط علـــيها الشـــمس، وتبقى على الكامل والصحيح والجميل الطلعة، تلمه في يدها في ركن وتعمل بأناملها الرقيقة فيما عداه وكأنها تعزف على البيانو لحناً صوفياً.

تســـقط شمس الشتاء الخجولة على سهام، على منديل رأسها الملفـــوف وحـــبات الـــترتر المتدلـــية وعلى شعرها تخشخش مع حركـــتها ومع حركات حبات الأرز تسقط الشمس على جزء من الصينية فتعكس ضوئها في عينيها المتقدتين أصلاً.

رمـــت سهام الأرز الدخيل إلى الشارع، ورمت بناظريها إلى الحارة الممتدة الملتوية المزدحمة.

كـــان اليوم، يوم أحد، وغالبية الأسطوات في أجازة، والأولاد فـــي المدارس، وكان حسن قد ارتدى أفضل ما عنده، غسل رأسه وسرح شعرة الأسود الكحيل إلى الخلف فبان شبيهًا بممثل السينما

القديـــم جـــاري كوبر. تقدم داخل الحارة يشبع منها ويرتوي من شتائها الحنون.

كانت سهام تدندن بأغنية حفظتها عن ظهر قلب:

- يا ترى يا ربّي هو ده والا لأ.... حبوبي ...

كانـــت الدندنـــة تسمع جلية رغم همسها وسط سمت الحارة تســـمعها آذان حسن المصغية لحركات حبات الأرز فوق الصينية ووقع أنامل سهام المنقبة.. رفع رأسه إلى الأعلى وقال:

- يا عين الحبوب من جُوّه .. يا سبب وعدي ومكتوبي ....

ابتســـمت ســـهام وردت نصف الشباك فاختفت وراءه بحيث تـــرَى ولا تـــرُى... تأملته مليّا وشبعت بكل جوارحها، قال حسن دون غناء:

- أنا من النجمة في انتظارك....

ردت سهام بسرعة:

- آني نازلة...

فالتفـــت حســـن يمينا وشمالا ... تطلع إلى كل البيوت وقال مغنيا:

- ياه... أما نهارك أبيض من طبق القشطة.

تقدم إلى الأمام وانزوى داخل عطفة أكثر هدوءا فلحقته سهام ترفل في ملاءتها اللف... تمضغ اللبان تهمس في أذنه:

- إوعى يكون حد شايفنا.

ضـــحك حســـن عاليا ممسكاً بيدها ضاغطا عليها في عشق محموم ثم سألها:

- إنتي خايفة؟

هزت رأسها. فأصدرت حركة الترتر جوابا سمعه حسن بكل انتباه.

ســـارا جنبا إلى جنب، فأجابته سهام عند خروجها من الحارة إلى الشارع بسؤال قاطع:

- تعـــرف أنا خايفة من إيه يا حسن... أنا بخاف اقرب من أي حَـــدّ... باخـــاف علـــى اللي جوايا... ماعرفش، ماحبش أبقى أسيرة.

ركـــل حسن حجرا منتثرا، ركله بقدمه، بسن حذائه فانتفض واندفع الحجر إلى الرصيف المقام حديثا... قال حسن:

- وأنـــا كِمان خايف يا سهام كل ما أقرب منك كل ما أحس إنـــي مسئول أشيلك معايا فرحي وحبي وكل حاجة حلوة. وأخاف تهرب مني في الزحمة لحظة حزن أو تعب أو قرف...

حكاية بدأت فى الشرفه

تطلعـــت ســـهام إليه. فتطلع إليها تعانقت نظراتهما فابتهجت وابتسم فبادرت تقول:

- بالضبط كده.. زي ما أنا بنقي الرز...

ضـــحك حســـن وتمهـــل عـــند بـــائع الـــترمس، وعند بائع

الكوكـــاكولا.... جلــس علـــى سور الكورنيش مشيراً إلى جانبه، داعــياً ســـهام لكي تجلس إلى جواره... غير أنها فضلت الوقوف راصـــدة تعابـــير وجهـــه.. تسريحة شعره، لون بشرته، ملبسه، رائحـــته، رسمه العام والخاص، وهو يذوب أمام عينها في صفحة الـــنهر الســـاكن جداً (سكون الموت الساكن)، تعطيه البهجة ألوان فساتين البنات وسترات الأولاد، تعطيه الحياة صورة حسن المنسقة المرسومة على صفحته... فأجابته سائلة:

▪ بيقولوا إنك راجل غاوي، بتزهق من الست بعد ما تحبها.

قال حسن وهو يمسك كلتا يديها بيد واحدة :

▫ يمكـــن بـــس مش زهق ده حب والحب فضيحة بتعري، يعنـــي بيتكشـــف الجوهر من المظهر، وأنا أسطى ميكانيكي أحب المعدن الأصيل، وأحب أصونه.

قام واقفاً يوازيها، فاضطرب تنفسها، همس في أذنها:

▫ خليّها الروح أمانة عندك... إمتى ممكن أقابلك...

صـــاح بـــائع الســـميط وبائع الشراب، صهل خيل الحنطور المـــتهادي، ووشوشـــت العصافير بعضها فتحركت صفحة النهر قلـــيلاً، غنـــت سهام على صوت الترتر فوق رأسها متناغمة مع دقات شبشبها.

▪ يوووه ... يادين النبي... ما أنا لسه مقابلاك امبارح....

أجـــاب حســـن وهـــو يركل حجراً آخر، هذه المرة في اتجاه

الشارع المزدحم جدا، السريع جدا، المضطرب جداً.

□ مـــا تفكرنـــيش ... أما دي فعلاً كانت ليلة .... في غاية الرقة.

مايو ١٩٧٧

الرجل والمرأة

رقــد على ظهره، على سريره البارد، ممتقع الوجه، شاحب اللــون، تظهــر العــروق واضـــحة منتفخة زرقاء مخضرة على ساعديه وساقيه.

مدت يدها إليه، لمسته، وجدته قويا عفياً يفح بالرغبة ويمتلئ بها.

لــم يعرف أحد ماذا ألمّ به، هل هو مرض صدري مزمن، أم مــرض خبيث أكل من رئتيه، ورغم البحث ورغم الفحص، فلقد رقــد الرجل على ظهره، يأكل وينام، يبول ويسعل، هكذا لأشهر طويلة.

لمسته مرة أخري، فوجدته دافئا مستقرا فدعته إليها فانتفض، قــام مـــن نومته يضمها بجسده دون ما عاطفة، يفرغ شهوته في برود، سعل سعلة قوية، ثم ارتمى بلا حراك.

نظرت إلى السقف وهي نصف مشبعة نصف حالمة صائحة: معقول!

عاد راقداً على ظهره، لمست عينيه وتلمست عروقه الزرقاء المخضرة ثم أدارت قرص الهاتف:

- أمي ...؛هل تصدقين أنه مات بعد أن صحا....

تهدج صوت الأم مجيبة في عنف:

- غط وجهه بالملاءة واصرخي كما تفعل النساء...

وضعت السماعة وأدارت القرص مرة أخرى وقالت:

- تصور أنه مات وهو يتدفق....

صاح بصوت الأجش:

- لا تفضحينا البسي السواد، وارسمي الحزن على وجهك.

وضـــعت السماعة وقامت، نظرت إلى جسدها الممشوق في المـــرآة المستطيلة. رأت في الركن النائي جسده المسجي، ورأت وجهـــه الممـــتقع وكأنه يغمز لها. ثم استرسلت تغني أغان رقيعة كانت قد سمعتها من ابن الجيران وهي طفلة.

أبريل ١٩٩١

الرجل الرجل

دوّت كلماتها في أذنه، لم تبرح رأسه وهو في طريقه إلى مقهاه المعتاد ليلعب (الطاولة) لعبته المفضلة مع أصحابه كل ليلة.كانت كلماتها قوية ونافذة وغير عادية:

(الراجل مش راجل بشهادة الميلاد، ولا لأنه راجل قدام الناس .. ولا لأنه تشريحياً راجل ... الراجل راجل لأنه المرأة اللي معاه بتحترمه لأنه موقف واحتمال، وأنه راع وأمين، قادر ومحتمل).

عاد من منتصف الطريق، فتح الباب في إصرار شديد، صرّ وخبط في الحائط المتآكل خلفه.

كانت تجلس في زاوية الصالة تشتغل بالإبرة التريكو والخيوط المتكورة، نظرت إليه في دهشة، نظر إليها في استغراب، كانت تضع ساقاً على ساق، وتبدو وهي تسند ظهرها على المقعد دون مبالاة، متحفزة له، ترك الباب مفتوحاً، ترّجل إلى الأمام قليلاً، وقال بصوت عال:

– (أنا راجل غصب عنك وعن أهلك).

نظرت إلى خيوطها، وإلى إبرتيها الطويلتين، وإلى ركبتها الطالعة من ثوبها القطني الفاتح، اشتغلت في حركة سريعة متمكنة، تقف وتتمهل ثم تعود لتشتغل. تذكر أنه كان قد ضربها في السابق مرتين وأنها بكت بشدة، أحسّ بطاقته تفوق امكاناته في الصبر، أحس بغضبه يتمكن منه ويصبح غيظاً ممجوجاً وألماً فظيعاً ليس له حد أو شعور، غيظ حاجز متفجر انتفض فيه فجعله كالثور الممسوس، وكالطير الهائج يخبط جناحيه في الهواء وفي الحوائط.

تقدم إليها حتى صار قبالتها، نظرت إليه في هدوء، خطف منها الخيط والإبرتين ورمى بهما إلى الأرض، ابتسمت في هدوء قاتل وقالت:

— الراجل مش راجل يتفوقه على المرأة. الراجل راجل بتفوقه على نفسه، على شهواته، بتطويره لنفسه، الراجل مش راجل بشهادة الميلاد.

توترت عضلات يديه واحتقن وجهه، مضى من الباب مسرعاً إلى الخارج يحثّ الخطى غير قادر على الفرحة بجسده الممتلئ بالحيوية، وبنفسه المشتعلة بالحماسة. نظر إلى الخلف وإلى أعلى، فألفاها واقفة في الشرفة وكأنها تودعه بإصرار على أن تظل كلماتها لصيقة به وأن تلاحقه في غدوه ورواحه، في لهوه ودنياه. وكانت الدنيا مغيباً والشمس تتوارى في بطء خلف البنايات

القديمة، تترك على حوافها العليا من نواحي سطوحها إطاراً من الضوء المستحي المختفي الزائل.. تذكرت وقفتها وقفتها في شرفتها منذ عشر سنوات، وتذكرت أيامها الحلوة واختياراتها البريئة، تذكرت الرجل الرجل الذي كان يذود عنها ويدرأ عنها معاكسات الصبية، تذكرت الرجل الرجل الذي كان يكسوها بحنانه فلا تجوع ولا تظمأ.

ارتخت قبضتا يديها على الخشب وانسحبت من شرفتها إلى غرفتها، أمسكت مرة أخرى بخيوطها وإبرتيها، وظلت تطالع شاشة التلفزيون دون أن ترى شيئاً.

جلس على مقعده المعروف، طلب شرابه المعتاد، أمسك بالنرد ورماه في عصبية، حرّك الدوائر والدوائر، شغل ذهنه بالصياح والأغاني والضجيج، تململ وهدأ، تحرك ولعب، لكن كلماتها لم تتركه، ولم تبرح رأسه، فقام من على مقعده، فقال زملاء اللعب في أصوات مختلفة:

ــ (خير .. خير يا أبو احمد..؟)

ردّ في اعياء:

ــ (خير إن شاالله.. بس تعبان شوية).

كان الليل قد حلّ، وخفت حركة البيع والشراء، وكان رأسه يدور كوابور الطحين، طلع الدرج في تباطؤ وفي ضعف، فتح الباب ودخل، نظرت إليه وهي مازالت تشتغل وتطالع، مضى إلى

غرفته، تناول حبّة اسبرين وجاءه صوتها من داخل رأسه عنيفاً كأنه الصدى، قوياً يحدث الصمم:

(الرجل اللي يستمد قوته من ضعف المرأة مش راجل...الراجل مش راجل بشهادة الميلاد)

ارتمى على فراشه بين الإعياء والنوم، تناهت إليه أصوات التلفزيون. كانت طاقته تضج بين صدره وأحشائه، وكان عرقه يتصبب غزيراً ...تآكل كأوراق الشجر... أما هي فكانت تزدهر في الصالة كالزهر اليانع، تزداد جمالاً كلما تقدم بها السن، وكلما أيضاً.. ازدادت غضباً..

أبريل ١٩٨٨

حديث المرأتين

كان من الصعب تحديد عما إذا كانت الحمرة على وجهها من تــورد خديها الطبيعي أم انها التأثير الحاذق للمكياج البسيط الذي كانت تتقن وضعه في حرفية بالغة.

كانت مهيبة الطلعة، ضخمة الجسد، تبتسم وهي تخطو؛ فتنفذ الـــى قلب محدثها بتمكن حذر، وكانت تخفي منها أكثر مما تظهر، فـــلا يـــبدو سوى وجهها الضحوك ومقدمة شعرها المصفوف في عناية.

جلست وتأملت وتنهدت ثم قالت:

ـــ يكبرني حسن باحدى عشر عاماً، وأول ما أعي أني كنت في الثالثة وهو في الرابعة عشر، إذا جريت جرى ورائي، حملني بيـــن ذراعيه ودغدغني؛ فأظل أضحك وأركل بقدمي الهواء حتى يتركني وشأني.

ابتســـمت محدثتها وانفرجت أساريرها، وانشغلت عنها بتغيير قنوات التلفزيون، ثم سألتها:

– طيب.. تشربي شاي ولاّ قهوة؟

ردت بسرعة:

– شاي.. وبالنعناع.

قامت مضيفتها تتمهل الخطى إلى مطبخها، غرقت إحسان في عــالم تصــنعه اللحظة، تغزله من الماضي وتغسله بدموع العين حتى دخلت عليها صاحبتها بالشاي، تسألها عن دموعها المنحدرة المنطبعة على خدها المتورد، فقالت إحسان:

– أبــدا.. بعــد إحدى عشر عاماً أخرى صرت أربعة عشر وصار هو خمسة وعشرين.

ندّت عن صاحبتها ضحكة عالية وقالت:

ـــ وتزوجتما..

قالت:

ـــ نعــم، ولــيلة العرس وضعت ذراعي في ذراعه، ووجدته غير ذلك الولد الذي حملني، تأملته فوجدته صغير السن.

ضحكت صاحبتها مرة أخرى وقالت:

ـــ يعني في البداية كان فيه مشكلة..

ردّت احسان:

– نعــم.. والمسيرة مشكلة، وكل يوم أنتظره أن يحملني بين ذراعيه فلا يفعل، أجده دائماً يرحل.. ويعود ثم يرحل..

نظـــرت المـــرأتان فـــي عـــيون بعضهما، أومأت الصاحبة فاسترسلت إحسان قائلة:

ــ عاملته بالضبط مثل سي السيد، استقبلته عند الباب، حملت عــنه أغراضه، خلعت عنه حذاءه، قبلته في جبهته، فما ابتسم وما انتظر، لكنه كالعادة أكل ونام ثم صحا وتعطر وخرج ثم عاد لينام.

كانت صاحبتها تبتسم ابتسامة يشرئب معها عنقها في فضول متشوق متسائل:

ــ وبم كنت تحسين وهو يحملك بين ذراعيه؟

ردت:

ــ كنت أحلم وأصرخ وأتمنى أن يتركني ولا يتركني..

التفتت إحسان إلى مضيفتها متسائلة:

ــ إنما أنت لم تخبريني عنك وعن زوجك؟

ابتسمت ثم ضحكت والقت برأسها إلى الخلف وقالت:

ــ زوجي يملؤني بكل شئ، يضع في حجري الجواهر، يزين شعري باللآلئ، يعشقني ويتزوجني كل نهار وكل مساء، لكن..

تقدمت احسان إلى الأمام مهتمة متسائلة:

ــ ولكن ماذا بعد كل ذلك؟ ...

صمتت مضيفتها وأطرقت ناظرة إلى جوربها النسائي الشبكي ذي الخيوط اللامعة، وإلى حذائها المرتفع المفضض وقالت:

ـ نعم، إنه يشتهيني من خلال عيون الرجال الاخرين، يطفئ غـيرته فـي جسـدي فأتلفت حوالي فلا أراه في أي شئ فأحس بالعطش والاختناق.

تذمـرت إحسـان، بدت مندهشة غير قادرة على الفهم فبدأت تغـيّر مـن قـنوات التلفزيون، تبلع ريقها في صعوبة وعصبية، وتستمد بعض الصبر والهدوء من قبضة يدها على كوب الشاي...

تنهدت إحسان، تركت كوب الشاي، وتركت الريموت، تهدّلت يداها، ثم بكت بصوت عال.

توتـرت صاحبتها، تقدّمت إليها، تمسك بيديها وتجفف دمعها فارتعشـت وانتحبـت معهـا، ومن بين عبراتها قالت إحسان في صوت متهدج وصدر يعلو ويهبط:

ـ أنـا خائفة.. لست خائفة من ارتكاب حماقة، لكني لا أرى من خلال سحابات دموعي وأخشى أن تزل قدمي، فأجد نفسي بين ذراعين يحملانني فلا أركل ولا أصرخ.

نـبح كلـب خـارج البيـت، زمجرت سيارة، أعلنت مذيعة الـتلفزيون عـن المسلسل الجديد، كان وجه احسان محمراً محتقناً بانفعال البكاء وكان وجه مضيفتها مصفراً مرتعشاً.

خرجـت إحسان بجسدها الضخم من الباب، خرجت وراءها مضيفتها تودعها .

سبتمبر ١٩٨٧

المواجهة

كانت قد عقدت العزم على أن تواجهه، وجهاً لوجه.. صممت علـــى تلك المواجهة وحضرت لها زمناً طويلاً.. اختارت اللحظة المواتـــية وهي عائدة من عملها في المساء، مجهدة، تجرّ ساقيها، تصعد الدرج، ساندة على السور الخشبي، تسند بيدها عليه، وكأنها تتشـــبث بـــه، وبين الطلعة والطلعةيطلع باطن حذائها حافة العتبة بالكـــاد، وتكـــاد يدهـــا الممسكة أن تترك مكانها لترتفع إلى فوق، لتنتقل، ولينتقل جسدها كله، مزيحاً أعباء النهار، متبرماً من أعباء اللـــيل، وكأنها الدهر في مسيرته، كهل يوازي الخطوات باللهاث، بالتوتر السريع، وبحبَات العرق التي مالبثت أن جفت بفعل رطوبة المكان..

فتحـــت، صـــرّ الباب، أزاحته بجسدها، انزاحت إلى الداخل، وألقـــت بنفســـها إلى حضن الصالة الكابية الضوء، ذات الرائحة العجيـــبة المؤلفـــة من بقايا الأكل، الغسيل الذي لم يجف، وعطن خشب الأثاث.

كـــان رشدي يجلس على طرف مقعد خشبي ملاصق لمنضدة الطعـــام المـــربعة المفروشة بمفرش ذي مربعات حمراء وبيضاء كبـــيرة ومزعجة، تتناثر عليه ذرات الخبز والطعام.. تدور وتطير ذبابة حَيْرى تطن، تكسر حاجز الصمت المُرَوّع. كان رشدي يسند رأســـه بـــيده محملقاً في بقايا الطعام، في مربعات المفرش، ويشم بطرف أنفه كل الروائح دونما مبالاة..

رفـــع رشدي رأسه يتأمل دخول نوال المتعب المتكاسل، لكنه مالبـــث أن أطـــرق برأســـه، أسندها بيده، وغرق في تأمله الملئ بالشجون.

تقدمـــت إليه حتى اقتربت منه، وصارت المنضدة بمربعاتها الحمراء والبيضاء بينها وبينه.

رفعت يدها في الهواء وقالت

– اسمع يا رشدي!!

رفـــع رأسه في بطء شديد جداً، نفذ ببصره إلى بؤبؤ عينيها، ولـــم ير إلا دوائر الإجهاد الزرقاء تحتهما. ولم ينتبه إلى أن نوال قـــد تقدمت في السن فعلاً، وأنها بالفعل قد صارت عصبية، وأنها لابد أن تتشاجر حتى تتعب وتنام..

ردّ في بؤس مؤلم مزعج منفر:

ـــ نعم يا نوال؟!

اقتربت منه أكثر، أسندت يدها الأخرى بذراعها الممدودة على المنضدة، كانت لم تزل تُلوّح باليد الأخرى في الهواء قائلة:

ـ لا تظن أني سأستمر في إعداد طعامك وتقديم شرابك، غسل ملابسك الداخلية وكيّ قمصانك، ثم أنام لك في أول الليل وأستيقظ لك في بداية النهار، أتزين لك وأنا مكدودة. آخذك داخلي وأنا أرفضك حولي..

ابتسم رشدي وهو يمسح شعره الكثيف المسترسل بيده اليمنى، تطلع إليها وقال:

ـ لكني لن أتخلى عنك..

ـ أنا قدرك الذي لن تنفصلي عنه؟!

ضربت بيدها اليمنى على المنضدة ذات المربعات الحمراء والبيضاء فتناثرت بعض ذرات الطعام في الهواء تخبط في وجهه، ثم قالت:

– وأنت، تستطيع أن تسعدني، فأسعدك ألف مرة، لكني أجزم أنك مجرد بغل يتنفس ماحوله، كلّ ماحوله، حتى الروث في تعاسة وسعادة، غيرقادر على الفصل بينهما.

ضحك رشدي في سخرية.

بكت نوال في عصبية.

دخلت إلى الحمام وطالعت وجهها في المرآة، تحسسته، مسحت على عنقها، شدّت صدرها إلى الأمام، لكنها مالبثت أن

إنحنت وتقيأت حتى تعبت فنهضت، وأعادت تأمل وجهها المختنق في المرآة...

كان رشدي واقفاً بطوله الفارغ، يسند كلتا ذراعيه على سور الشـــرفة يســـدَ عـــن نـــوال ضوء الغروب وحركة الشارع، كان كالتمثال الرابض، كالميت الواقف، بلا زمن وبدون ارتواء.

•

أغسطس ١٩٨٨

حكاية بدأت في الشرفة

قالت سالي له، وهي تحدق فيه ككل:

– لولا إدراكي بجلالة مكانتي لديك لظننت بك السوء في مواقف كثيرة، أحكي لك كل شئ حتى تفاصيل أحلامي وبواعث تعبي وهمي وأكلي وأنت ..؟؟!!

قاطعها ماجد قائلاً وهو يمسك بحديد الشرفة مطلاً على حركة السيارات البطيئة في الشارع وأيضاً على المارة وعلى الشرفات الأخرى التي حرقت حوافها الشمس، وانتشرت على بعضها الملابس التي تنتظر الجفاف، قال:

ـ وأنا أيضاً أخبرك بكل شئ..

ضحكت وهي جالسة مستلقية على كرسيها الخيزراني دافعة قضبان سور الشرفة بقدم واحدة، تدفعها تلك القضبان مرة أخرى وكأنها رغم علمها بصلابتها، وبأن القضبان تستمد قوة من الاسمنت والبناء والحجارة، إلاّ أنها كما تعودت مشاغبة تحاور

حتى الجماد، حوار القوة الصماء، وأيضاً الحوار الخالي من أحقاد الصراع البشري وعنفوانه النفسي المتهيج، قالت:

— نعم تخبرني ولكن أحياناً، بالقشرة دون اللب، ربما ليس عن عَمد، لكنه التحرك المحسوب للاشعور الذي يغلي لديك..

ضحك مرة أخرى، تطلّع للأولاد الذين استباحوا الشرفات ملاعب لهم، مرة للكرة، ومرة للعراك، ومرات لمشاكسة المارة بقذف النوى والعلب الكارتونية، وأحياناً برّشات الماء البسيطة.

قال:

— أحس بالخجل، بالوضوح المفضوح، وبالتعري أمام الآخرين حينما يرون وجهي...

أنزلت ساقها وقدمها بحذائها اللين ذي الكعب الواطئ من على السور إلى الأرض.

قالت:

— هنيئاً لك بتبدل وجهك ألف مرة بألف انفعال، تبحر مع المشاعر فتبدو أمام مستقبليك طفلاً وكهلاً ومتنقلاً في رحلة العمر كالومض والوهج، ما أحلاك وما أبدعك ويا بختك..!!

بانت عليه الدهشة، وبان عليه التعجب والفرحة المغرورة، تبدّلت ملامح وجهه وصوت تنفسه، ضحكت لأنها رصدت تأثير تصريحاتها.

قالت له:

ـــ ليس لدينا عشاء، هيا بنا ننزل إلى السوبرماركت المجاور...

تركا الشرفة وتحركا في اتجاه الباب، توقف المصعد فتوقف صوته، انفتح وسمعا صوت مناقشة، كادا يعودان لكن الفضول دفعهما فدخلا ووجدا زوجين يتحدثان بصوت عال، لم يتأثرا بوقوف المصعد ولابدخولهما، واستمرا في مناقشتهما، يبدو أنهما كانا قد تشجعا بوجود رجل وامرأة آخرين داخل الصندوق الكهربي المتحرك إلى أسفل.

كان الرجل يقول للمرأة:

ـــ المرأة دوماً هي السبب.

والمرأة كانت ترد:

ـــ بل إنه الرجل.

صرخ في وجهها، بانت وجوه الأربعة في مرآة المصعد وكأنها مشهد سينمائي يغطيه الضوء الكابي والأنفاس الدافئة .. قال:

ـــ كيف هو الرجل؟! لقد كان مدحت يحب سلوى حباً جنونياً، تزوجها وظل عاشقاً لها حتى طلبت الانفصال.

قالت المرأة في حدّة:

ـــ لا بل كانت سلوى تحب مدحت، ثم صارت لاتحبه ولا تكرهه، ثم كرهته، لقد أصبح كالدبّة التي قتلت صاحبها عندما ضربت الذبابة الواقفة على وجهه وهو نائم.

انفتح باب المصعد، خرج الرجل والمرأة، تابعهما ماجد وسالي.

قال الرجل للمرأة:

ـــ لقد كان مدحت يعشق سلوى بجنون إلى درجة أنه كان يتنشق عطراً خاصاً من ملابسها المتسخة.

صاحت المرأة وقالت:

ـــ نعم ولهذا ظلا سنوات طويلة دون أن ينجبا .. العلم يقول أن المرأة إذا لم تحب رجلاً من داخلها وترضى عنه، يصعب أن تنجب منه ...

قاطعها الرجل قائلاً:

ـــ والدليل.؟؟!!

قالت المرأة:

ـــ الدليل أنها عندما تزوجت من سالم أنجبت فوراً.

مشيا على الرصيف المزدان بأعمدة الإضاءة، استمرا في الحديث، قال الرجل:

ـــ سلوى كانت تعرف زوجها الثاني وهي بعد على ذمة مدحت.

توقفت المرأة قائلة:

ـــ غير صحيح، ظلت سلوى امرأة مخلصة رغم أن الحب خنقها، ولما انفصلت عن مدحت ومرض ظلت تعوده في المستشفى مقدمة له الزهور يوماً بعد يوم.

مضى الرجل والمرأة الى داخل السوبر ماركت، واختفيا في الزحام وغالباً كانا قد توقفا عن الحديث ..

امسك ماجد بيد سالي وتأمل وجهها المضاء، قادها عائداً إلى مدخل العمارة فتوقفت متسائلة:

ـــ الله .. ألن نشتري العشاء؟

ـــ لا.. ليست لي نفس لتناول الطعام.

هزت رأسها وقالت:

ـــ لا تتأثر كذلك بما سمعت، المرأة لاتريد رجلاً يعشقها عشق التمثال، ولا متيماً مثل قيس ولا ضعيفاً يذوب في ملامحها وجسدها، إنها تحتاج إلى رجل يحبها كامرأة ويغزوها فكرياً كل صباح وكل مساء حتى لو لم يتحدث إليها .. رجل يضفي حضوره عليها الجلالة والهيبة .. رجل يسيطر على دقائق تفكيرها فتطرز من أحلام يقظتها ومنامها أحلى السترات التي تتدثر بها خارج وداخل بيتها.

ابتسم فضحكت وقالت:

ـــ نعم جل ماأخشاه هو تلك النافذة المفتوحة في عقلك، تلك التي تفتتن بالمرأة التي قد تعرف مفاتيحك، أو على أقل تقدير .. تفهم انك تحمل مفاتيحها.

صعدا الدرج إلى شقتهما، توجها إلى الشرفة، جلس ماجد على الكرسي الخيزران يدفع قضبان الشرفة بقدمه، ووقفت سالي تمسك بكلتا يديها بحديد السور المقام.

ديسمبر ١٩٨٧

المفاجـــأة

حاولـــت حبس دموعها فاغرورقت عيناها ورفضت مدْ يدها لتســحب مــنديلاً ورقياً من علبة كرتونية وردية اللون قُدَمت لها على استعجال.

لــم تكــن سلمى تدرك كل مواطن القوة التي لديها غير أنها كانـــت تعرف أنها تحمل الكثير من مواطن الضعف فعزّت عليها نفسها وكادت أن تنهار.

قامــت واقفـــة وعدّلــت شعرها المصفوف على شكل غُرَة مقســومة نصفين من الأمام .. ومن الخلف. كان الشعر معقوصاً ومشـــبوكاً بتوكة رقيقة عليها فصوص صغيرة تلمع وسط شعرها الكســتنائي كالنجوم البعيدة في الليالي الصحراوية الخاوية الممتدة، لا يفســد رونقها الإلهي إلاَ صوت السيارات الضخمة ذات الأنوار الكبيرة.

بلعــت عيــناها دموعها وانسحب الحزن إلى داخلها وقامت واقفـــة شامخة تزيح الوشاح برأسها وترمي بعباءتها السوداء على

الكرسي الذهبيَ المساند والفرش الأصفر الليمونيَ الفاتح.

كان خالد جالساً في مقعده الوثير محاولاً إخفاء ارتباكه وكان يترقبها منتظراً اللحظة القادمة وما تحمله من مفاجآت.

جلســت إلــى جواره في المقعد المجاور له وأسندت ذراعها على مسنده ونظرت في عينيه وقالت:

■ أعرف أنك تخونني ..

ابتســم خالد ابتسامة ماكرة يخفي بها بعض الحرج ويبدو في اســتلقائه إلــى الخلف غير مهتم على الإطلاق، استطردت سلمى وقالت:

■ وأعــرف أنــك تخوننــي بالتحديد مع الأجنبيات البيض الشقراوات..

فتح خالد فمه هذه المرة متعجباً، يهز رأسه قائلاً:

□ الله يهديك، لماذا سوء الظن..

كانت عيناها متوجهة إلى عينيه اللتين كانتا تهربان منها غير أنهــا اســتطاعت لمح الارتباك الخفيف ورعشة الساق المرفوعة على الساق تحت الثوب الأبيض الناصع.

* * *

مضــت سلمى إلى غرفة نومها تتأمل جسدها وتتذكر الغزل الــذي قيل فيها وعن المراهق الذي كتب فيها الشعر وخط اسمها على كل دفاتره المدرسية، عن الخائف عليها من الخروج بمفردها

خشـــية الفتنة والضجة اللتين يحدثهما جمالها، ابتسمت في المرآة لكـــل الأشـــياء الحلوة، فكت شعرها من الخلف واستلقت بظهرها تلامـــس الأرض بقدمـــيها، كـــان صـــوت تنفسها يختلط بصوت المكـيف، كـــادت دموعهـــا أن تنحدر فرفضت أن تمتد يدها إلى مـــنديلها القطنـــي الصـــغير المطرز من الحواف، فبلعت دموعها وريقهـــا، نهضـــت مـــن راحتها، طالعت طولها ورسمة حاجبيها ودوران بؤبؤي عينيها واسترسال رموشها الكحيلة.

تمشـــت مـــن الغرفة إلى الممر الخافت الضوء، المؤدي إلى الصـــالة فالتقت خالد وهو يحث الخطى في وجل وحيرة، استوقفها فقالت :

▪ ابعد عني..

صاح :

▫ أنا زوجك وأبو عيالك.

صرخت:

▪ ابعد عني..

تمهـــل وداعـــبها ونهاها وصرخ فيها وحقر من شأنها وسفَّه منها وداس على كرامتها ثم دعاها إلى الفراش فصرخت:

▪ ابعد عني..

لــم يــبعد خــالد، كــان في صلفه وتكبره وعناده يحاول لمَ الشــذرات الباقــية من رجولته في مواجهتها، غير أنها لم تمهله ودفعته جانباً تشق طريقها إلى الصالة، فتحت بابها ومضت. لحقها واطمــأن إلــى أنها كانت قد ركبت مع صاحبتها غير أنه انزعج بشدة لأنها كانت سافرة بدون عباءة أو غطاء للرأس.

عــادت ســلمى فــي هدأة الليل تدق الأرض في قوة، وترفع رأســها في شموخ، كان خالد جالساً يضحك عالياً وهو يتندر في الهاتف ولما رآها غيرّ من لهجته، طالعها فوجدها متوردة الخدّين تصعد الدماء إلى وجهها وكأنها بذلت مجهوداً ضخماً.

وضع سماعة الهاتف معتذراً ثم قام صائحاً بكل ما أوتي من قوة سائلاً سلمى وهو يشد ساعدها ويلوي ذراعها :

- وين رحتِ.. وإيش سوَيتي..

ضــحكت سلمى وسحبت يدها من يده في قوة لم يعهدها فيها واسترخت على المقعد الوثير، كانت عيناها تلمعان، وكان شعرها مــن الأمــام غــرة مقسومة نصفين ومن الخلف مفروداً محلولاً منبسطاً على كتفيها، تنهدت في راحة وتنفست في عمق، ابتسمت فــي هدوء رائع وهي تطالع العلبة الكرتونية الوردية الطالع منها المــنديل الورقي، كانت متأكدة تماماً أنه ليس هناك ثمة دموع في العــيون تُحبس وتُبلع، وأن خالد قد صار كقطعة من الأثاث، وأنها بالفعل تمسك بيديها زمام شئ ينفلت.

جلـــس خالد على الأرض عند قدميها، تأمل عينيها وبكى في حـــرقة. استسلم ولاذ بصمت غريب لا يقطعه سوى صوت جهاز التكييف .

مارس ١٩٩٢

العُـــري والكلاب

قـــال وتجاعـــيد وجهـــه تزداد تغضّناً وعضلاته ترتبك حول زوايـــا الفـــم فتخرج منه الكلمات مترددة وكأنها تخرج من جوف قبر:

- لا.. لن أتعرَّى.. ولن أرمي بثيابي لكلاب العار..

قالـــت وهـــي تهـــدئ من روعه، محاولة طمأنته وكأنها الأم الرءوم ساعة الفجر تهدهد طفلها المحموم:

- ارم بثيابك إليَّ وتعرَ، لا تخف فلن يشاهد سوءاتك غيري ولـــن يضـــيرك أن أعـــرف عيوبك فأنت تحتاج لأن يعرفك كلك شـــخص واحـــد في هذا العالم الواسع المزدحم.. يعرفك جيداً، أن يكشـــفك فلا ترتجف فتتطهر وتحقق الخلاص، فلا تستحم في بحر الأحزان.

كـــان واقفـــاً أمامهـــا، بينهما طاولة مدورّة عليها مفرش ذو مـــربعات هادئـــة، وكانـــت تجلس على كرسي من البوص القديم المعـــروف باسم البامبو، ترتدي بلوزة بيضاء سكرية ذات خطوط

طويلـــة ســـوداء تنسجم تماماً مع جسدها الممشوق، وبنطلون من القطـــيفة السوداء الفاحم. تضع على عينيها نظارات شمسية يبرز من فوقها حاجبيها القوسين الممتدين، قالت:

▫ قلت لك أرم بثيابك واهدأ، ولا تخف مني ولا تفكر لا في العار ولا في كلابه..

عَـــدَّل من قميصه داخل بنطلونه، جلس أمامها يراقب أبراج وفـــنادق القاهـــرة الشاهقة، وجلست هي تتأمل صفحة النيل التيَ تشـــقها، وتعـــبرها الباصات النهرية والبواخر السياحية، وتغطيها الشمس الدافئة المنتشرة في كل الأنحاء.

قـــال وهـــو يمدّ يده يرتشف الماء الرقراق فتلمع عيناه بفكر عميق وهمَ أعمق:

▪ لســـت ســـيئاً تمامـــاً ولا طيباً تماماً، أنا لست عبقرياً في الانســـجام مع الأنثى كما تقولين، ولكني واثق من أن بقائي هنا أو هناك متعلق بحركة سريعة خاطفة.

ضحكت وهي تعّدل من وضع نظارتها وتمد رجليها بامتداد الكرسي تحت الطاولة المدورة وفوق العشب الجاف المتآكل والذي تظهـــر تحـــته عـــيون الأرض المجدبـــة تتخللهما وتتدفق تحتهما وحولهمـــا محـــيطة بهمـــا مغلفـــة منطقة الحب تلك، وكأنها تلك الشعاعات الملونة في أفلام الخيال العلمي .

قالت فجأة :

▫ إن ابني يريد أن يصبح طبيباً بيطرياً كي يعالج الحيوانات المسكينة التي لا يهتم بها أحد.

بادر قائلاً وهو يسمع صفارة باخرة عليها سائحون كثيرون:

▪ وقد.. عندما يكبر.؟! يعالج الحيوانات المرفهة عند أثرياء القوم.

همهمت في ود عميق، تهز رأسها في نعومة شاردة قائلة:

▫ لا لا.. اسـمع، لقد اضطرتني الأيام لأن أشحذ العواطف حـتى مـن هؤلاء الذين يبيعون لي الطعام.. فلما غمرتني بفيض حنانك صرت ملكة !

وضع ساقاً على ساق محملقاً فيها قائلاً:

▪ آه أيتها المرأة النحلة، لا تملّين العمل وتملئين كل الأمكنة التـي تحضـرين فـيها ضجة وحياة.. دون أن تفعلي شيئاً.. فقط بصـمتك. بابتسـامتك المجاملة الخجولة وبانحناء رأسك الخفيفة، وإطلالـة شـعرك المحترمة، خطوك الهادئ المركز، وكأنك كلك تحملين داخلك الانفجار، وكأنك الحوت العظيم النادر يحمل العنبر والياقوت والقنابل التيَ لا تدمر ولا تحرق.

مدّ يده إلى يدها متأملاً عظام أصابعها المنسقة، ضغط عليها لـيحس بتكويـنها الداخلي المتألق، كان يعرف إن انحناءة الشمس كانـت تنزل حرة على حواف المباني العتيقة والجديدة دون شك، ودون تـردد، وهكـذا أيضاً كان النيل في حركته البطيئة وصمته

الهائل.

مدَّ يده مرة أخرى وأخذ يدها ورفعها إلى فمه، لثمها في خفة وفي حنان، ودعاها كي تقوم، مشيا على العشب الجاف والأرض المطلة. مدّ ذراعه ليضم كتفيها إلى صدره قائلاً :

▪ هاهـــي حياتي وضعتها على كفي، وقدمتها إليك تغزلينها وتنســـجينها كيف ما شئت، لا أخاف منك ولا أخجل، أنا لا أرتاح إلا علـــى صـــدرك ولا أشرق إلا من خلالك، لأول مرة أدرك أن إنكار الذات لا يتحقق إلا مرة واحدة بصدق مع امرأة واحدة

تمشـــيا حتى وصلا إلى سور الكورنيش المطل على عوامات النـــيل القابعـــة ككـــلاب الحراسة، يخبط الماء في حوافها فيصدر صوتاً رتيباً غريباً.

جلست على حافة السور ووقف أمامها فقالت:

▫ هيا ارم بثيابك إليَ ولا تخف.. اسبح في النهر فلن تغرق ليست هناك كلاب وليس هناك عار!

تمشىً بضع خطوات نحوها ثم قال:

▪ قـــرأت في الجريدة خبراً عن امرأة في الغرب طلبت من القاضـــي أن يحكـــم لهـــا بالطلاق من زوجها ولم تكن لديها أية حيثـــيات، فلمـــا سألها القاضي لماذا الآن تريدين الطلاق وبينكما أولاد وتـــاريخ قالـــت : إنـــي أود الطلاق منه لأنني لم أنمُ، ولم أتطور معه لحظة واحدة... .

قامت من على سور الكورنيش وواجهته متسائلة :
وبم حكم القاضي؟!
قال :

▪ حكم لها بالطلاق لكنه سألها متعجباً، لكنك تطورت كثيراً وحققت نجاحات إنسانية وعملية خلال زواجكما.
قالت :

▫ أعــرف بقية القصة بالفطرة وبالتجربة، لقد تطورت تلك المـــرأة على حساب داخلها القوي، ولأن الحرمان نبي الفنان، فلقد تعلمـــت مـــن فقر العواطف أن تفيض عطاءً على من حولها دون ابـــتذال، وهكذا أنا كالسابحة في اليمّ دون معرفة سابقة بالسباحة، هـــي الغريزة وهو الهم وهو القدر وهي الأيـــام، لقد تعـــلمت أن أخـــتـــم على كل الأبواب المواجهة للبحر، أن أنزل الستائر، أن أجلس منتصبة مثل حلم جاف على كرسي من الخشب العتيق وان أطلب من نفسي نوماً سريعاً بارداً... .

احتضنها، فارتجفت في حضنه همس في أذنها متسائلاً..

▪ هل تقرئين لديلان توماس..؟!

ابتسمت من بين دموعها وقالت :

▫ لا أحفــظ الأســـماء لكني أقرأ كثيراً...، أتمنى أنمو بين يديك كالعصفور.

ضـــغط علـــى خصـــرها فتأوهت متحيرة وراحت تمسك يده

الصـــغيرة، تقوده إلى الأمام كان فرحاً بانقياده الطفلي ذلك، وكان يـــدرك تمامـــاً أن مـــا ســـمته حبيبته عبقرية علاقته بالأنثى يكاد ينحصر في إن قلبه وعقله الباطـــن يحوي صـــورة تجمع ما بين الفلســـفة والفنـــتـــازيا، لامـــرأة سحرية، وأنه في دورته حول الأرض، إنما كان يبحث عمن تطابق تلك الصورة، وكأنه الصياد فـــي البحار السبعة، وكأنه السندباد في البلاد القصية، يجد شذرات مـــن صورته تلك فيخالها كالسراب فتوهي وتتبعثر ولا يبقى منها سوى الذكرى الواهية.

- لكنك ....

هكـــذا قـــال لها بصوت عال وهو يمشي معها في بطء على رصيف الشارع المضاء على استحياء، ثم استطرد :

- لكنك أنت البدء والأصل، توغل في أعماقي، تشرَب مني، لست صورة .. لا من خيال ولا من فكر.. أو ثقافة.. بل إنك قلب الواقـــع الممتد أمام عيوني، ماضيك، وتاريخك وحاضرك، حسك العربـــي وثقافتك الأجنبية، حرمانك وتعبك يمتزج بي وبأخلاقي، يتشـــكل في العمق مني ويضئ بصيرتي، وتبدئين حياة جديدة في حركة يدي وفوضى شعري... وقلقي.

عبرا الشارع، عبرت السيارات في اتجاهات معاكسة، وعبر الناس الأرصفة والكورنيش وتبادلوا النظرات المتطفلة والمتشوقة، وفجأة توقف ثم قال :

▪ سأتعرى، وسأرمي بثيابي إليك .

ردت بسرعة قائلة :

▫ وسآخذها في حضني، تأمل عريك، وسأحبك أكثر، وستبقى لي طاقة الدنيا المفتوحة في وجه الحرمان والألم.

انتحبت من فرط السعادة، فضغطها في صدره، واعتقد أنه سمع صوت تكسر أضلعها بين ذراعيه، غير أنها لم تتأوه، وكأنه يشق أحشاءه، يسكنها أعماقه، ويغطيها بأعصابه، ويستسلم لتلك المفارقات الرائعة للقدر.

فبراير ١٩٨٧

سيد ونفيسة

(آآآآآآآه ... يابـــت يـــا نفيســــة، لـــو يخطف منك بوسة في الضــــلمة. في الزحمة. في الغفلة، في الخفا .. لكن مين ؟! ده ابن الكلب الغتت ده، كتب كتابه عليك، عشان بس يمسك إيدك !!).

هكـــذا همهمـــت نفيسة لنفسها، متذكرة أيام الخطوبة، تنهدت تنهـــيدة فـــيها وجع، تنهيدة طقطق لها قفصها الصدري، نفرت لها عروق رقبتها، وسرت رعشة خفية في أصابعها.

(يـــا ديـــن النبى، يادين محمد، يارب، يا مثبت العقل والدين، ترحمنـــي من غلاسته وسماجته وهدوءه وألاطته. الواد الأبيضانى ده ...).

ضـــحكت البنت نوال وهى تستمع إلى كلمات زميلتها نفيسة وهما تتذكران الأيام الخوالي على حافة الكورنيش بعد الانتهاء من عملها.

اعتدلـــت نوال في جلستها، ربّعت رجلها تحت فخديها ومدّت بوزهـــا إلى الأمام، وصار شكلها كوميدياً جداً، إلى درجة جعلت

نفيســـة تـــنفجر فـــي الضـــحك الهيستري دون توقف لدرجة أنها (شـــرقت)، ووقفـــت لقمـــة السميط في زورها. ناولتها قلة بياع الـــترمس شربت واتكرعت وقالت : الحمد لله، مدّت نوال بوزها مـــرة ثانـــية إلى الأمام، ومدّت رقبتها الرفيعة كالوزة الجوعانة، تمطـــت في نطقها وقالت بصوت كاريكاتيرى يشبه صوت (حسن فايق) قبل أن تنالة تلك الزغطة :

- هيه، ما قلتليش يا نفيسة. طيب واتجوزتيه ليه ؟!
- قســـمة ونصـــيب يا بت. ابن عميّ، والرجالة اتكلموا مع بعض من ساعة ماكنا ولاد سبع سنين.
- يعنى ما تفكش كده، بعد الدخلة ؟!
- يوووه .. دخلة إيه يا أم دخلة ؟ ..

ده كـــان بيحارب، بينفذ مهمة. بيثبت حالة بيعمل واجب. لما شاف الدم زغرد وهيّص ورقص كإنه فتح عكا، والمسألة مخدتش ثواني وجري، وأنا مرمية على ضهري. كإنى شميت ريحة الأكل بـــس. كإنى مستنية كمالة الفيلم، لكنه راح ورجع واداني ضهره، أمـــا شـــخيره فكان عالي. عالي قوي وكتاب الله المجيد كان شبه الخنزير..!!

دوّرت نفيســـة وجهها ناحية بائع الفل، ودوّرت نوال وجهها ناحـــية الأزواج والعشـــاق والعائلات، وهم يدخلون إلى المركب المطعم الراسية على صفحة النيل يلّمون ذكرياتهم ويحاولون دفن

مشـــاكلهم، يتفرســـون فـــي رجـــال ونســـاء غيرهم، ويتفرّسهم الجرســـونات والســـياس وســـواقين التاكســـي والحنطور وأطفال الشوارع.

قامت نفيسة ونوال لتتمشيا، عدّوا على بائع الذرة، وبائع الفل، وبائع السميط، وبائعة الشاي. اقتربا أكثر من النيل، كان عكراً في تلـــك الناحـــية فرأيا صورة وجهيهما عكرة، حدقا في النهر، وفى الصورة، وفي العكارة، وسرحت بهما الدنيا، وسرح بهما الوقت، ولمـــا زادت لســـعة الـــبرودة. التصقا ببعضهما البعض، فتوحدّت الصورة وزادت العكارة.

* * *

جلس سيد وفؤش على كرسيين بلاستيك أبيض، على كوبرى إمبابة، يأكلان حمص الشام بالشطة الحمرا الحراقة السخنة.

نظـــر فؤش إلى عيني سيد المحمرتين المحولتين قليلاً، سأله مهتماً وكأنه صحفي يحاور مسئولاً مهماً :

ـــ واد يـــا ســـيد، مـــالك كـــده، مالك، حالك اتدهول بعد ما اتجوزت نفيسة ؟!

بـــان وجه سيد محمراً. كان احمراراً مخيفاً لانعكاس احمرار عينيه عليه، معاكساً النمش المبعثر على جبهته وخديه. تململ في كرسيه، ثم أجاب وكأنه المسئول المهم المزنوق في الكرسي وفي الإجابة:

— مـــاهو .. ماهو، مفيش عاطفة، مفيش رومانس يا فؤش. الواحـــد بيـــتفرج على أفلام عربى وأجنبي، خصوصاً على الدش دهـــو، بـــيلاحظ إن الـــراجل والســـت بياكلوا بعض أكل،، كإنهم مخلوقيـــن لبعض، راكبين على مقاس بعض مولفين قوى في كل حاجة زي ما يكونوا عجينة واحدة .

أنـــا بقـــى مع نفيسة كإنى باضرب عشرة مع جثة، مع حتة لحمة بتتنفس.

مَـــدّ فـــؤش بوزه إلى الأمام، عَوجَ رقبته ورأسه وكتفه، سأل سيد في اهتمام :

— طيب واتجوزتها ليه ؟! لمَّا مفيش عاطفة ولا انسجام ؟!

قـــام سيد واقفاً غاضباً، شفط كل الكوب الساخن مرة واحدة، كأنـــه يـــتجرع خمراً حتى الثمالة، ازداد وجهه احمراراً وزادت عينـــيه احتقاناً، وظهر النمش الأسمر على مساحة وجهه البيضاء التي بدت كالكبدة، خرجت الكلمات من فمه ترغي وتزبد :

— يـــووه ... اتجوزتها ليه ! اتجوزتها ليه ؟ حدّوته هيَ والاّ فـــيلم، احـــنا ولاد عم، ولاد زفت، ولاد كلب، ولاد حرام، زىّ ما انـــت عايـــز، قـــالولى البـــت مـــتعلمة. لقيـــتها متعلمة بس مش فاهمة؟!......

ضحك فؤش وقام واقفاً موازياً لسيد، عدّل الطاقية الطرطور على رأسه، لتدفي أذنيه أكثر :

▪ حلوة دى، متعلمة بس مش فاهمة ؟ كتار دول بعيد عنك دلوقتـــي، ماليـيـــن البلد...قصدك يا حمار متعلمة بس مش متودكة ومش مخربشة يعنى .

جلـــس سيد على الكرسي الأبيض البلاستيك، طلب طلباً آخر مـــن حمـــص الشام المغلي. رمى الملعقة إلى جانبه، رشف رشفة لســـعت لســـانه، حمـــرّت عينيه ووجهه أكثر ؟ فبان العرق على جبهـــته. جلـــس فـــؤش يسند ظهره على ظهر الكرسي البلاستيك متأملاً الرائحين والغادين.

قال سيد في تمهل :

ـــ أبويـــا هوّ اللي رتب العملية عشان مال أخوه ما يروحش بـــرّه، أمـــيّ واخواتى بيعقدوني منها وبيقولولى مناخيرها لفوق، رجليها لفوق. وصدرها لفوق كل حاجة لفوق، حتى تفكيرها !!

حـــكّ فؤش فروة رأسه من تحت الطاقية الصوف الطرطور سائلاً سيد:

ـــ هىّ نفيسة حلوة ؟!

ردّ سيد بسرعة :

▪ مش قوي.

تنهد سيد تنهيدة طويلة وقال من جوفه:

ـــ نفســـي حَدّ يحبنى وأحبه، ألاقي نفسي فيه، إنما انت يا ابن العايقة عمّال تسأل من الصبح وأنا بجاوب، زي المسئول المزنوق

الأهطـــل. أنا بقى هسأل يا روح أمك !... شكلك مخضوض ليه ؟ وبتتخفى ورا قناع الضحك والسخرية ليه ؟! خايف من إيه ياوله !

ارتـــبك فـــؤش، ارتعش داخله ؟ فلملم نفسه من الخارج، ضمّ ذراعـــيه حول وسطه، وحول صدره، أخذ نفساً طويلاً ثم اشرأب بعنقه، رفع رأسه بالطاقية الطرطور وقال في تؤدة:

▪ أنـــا .. أنا ... باحاول أوصل للعمق، في كل مَرّة بأقابل فـــيها نـــوال بتتشال مني حاجات من جوه، مرة جلخ، مرة وسخ، مـــرة ندالـــة، مـــرة خـــوف، مرة ضعف، أيام أفتكر مراة أبويا، المدرســـة، الجـــيش، قلبي مقبوض، الفرحة بقت لحظة وبتخلص بســـرعة، ومضـــة وبـــتروح، زى الـــبرق يضوى ويختفي على طـــول... أنا مبهوَق وملخبط يا سيد، فيه إيه بالضبط ؟! إيه اللعنة دى ؟! إيه البهوقة دي ؟!...

صـــرخ عالياً، صرخة رجت مياه النيل تحت كوبرى إمبابة، هـــزّت الكراسي البلاستيك البيضاء وعربة حمص الشام، والناس، الـــباعة العشاق. انخرط في نوبة بكاء شديدة لم تنفع معها ربتات سيد على ظهره ..

انحـــنى ســـيد وقـــد هزّه الموقف هزاً عنيفاً وضع رأسه بين رجليه وقال :

▪ قبل ما اتجوز نفيسة، وقبل ما اسمع كلامك دلوقتي، كنت متصـــالح مـــع نفسي رغم إنى عارف بالضعف اللي جوايا، انت

صـــدمتني يا فؤش، من برّه تبان حديد وصلب وحجر صوّان، كل ده طلـــع فالصـــو، بـــس انت مش فالصو يا فؤش، انت بس واد حساس !

وضـــع ســيد وفــؤش كوبا الحمص نصف ملأى على حافة العــربة المـــزدانة باللمـــبات والألوان، كان البوح قد فشخ فؤش، فانتفض كالطير الزاعق من قلب الرماد، وعلى الرغم من اكتشافه هشاشـــة نفسه، لذلك قرر الصمت أما سيد فلقد استمر في الثرثرة حتى تعب وشارك فؤش في الصمت المريب .

مـــا أن دخل سيد البيت حتى وجد نفيسة واقفة وسط الصالة، ربَّعـــت يديهـــا وعقدت ذراعيها في وقفة تحدي شامخة تحت لمبة الصالة، عمودية بظلها على البلاط الممسوح بغلّ المرأة المقهورة المحبطة المنهكة الجوعانة.

قالت في هدوء مرتب الكلمات:

- طلقنـــي يـــا ســـيد، طلقنـــي بالتلاتة يا سيد .. ما تخافش هابريك ...

لم ينفعل سيد، لكنه كتم غضبه وعقدت الدهشة لسانه، قال في صوت مهزوم :

- طيب ... والعيال ؟!

ردّت نفيسة في صوت محسوب وكلمات مضغوطة:

ــ لــيهم رب، ليهم رب يا سيد، وأحسن لهم يتربوا بعيد عننا واحنا مع بعض، انت ما بتراعيش ربنا فيّ يا سيد .. انت غبي .

بلع سيد ريقه، مشى إلى غرفة لنوم متثاقل الخطى، التفت إلى الخلف وسأل نفيسة :

- انتي ما بتحبنيش يا نفيسة ..مش كده ؟!
- لأ ... انــت أبو عيالي، وشريك في شقتي خلاص يا سيد، مــش هــاقدر أخلّيك تقرب مني، لازم نتطلق علشان ما اغضبش ربنا ...

ــ سيد انا باقرف منك!... ابعد عنى ... طلقني ...

تمهل سيد، وقف عند باب غرفة النوم ثم قال : يعني، يعني، بتحبى حَدّ تاني يا نفيسة! هتتجوزى بعديا يابت ؟!

- لأ يــا ســيد، هافضــل عَزبَة، مش عايزة بطيخة وتطلع قرعة، همّوت أحاسيسي ورغبتى، هاعيش زى الراهبات والأرامل والشــواذ، خــلاص تعبت يا سيد، ارحم بقى، ارحم وخللى رحمة ربنا تنزل.

دخــل سيد إلى غرفته، جمع حاجياته، توجه الى بيت فؤش، دخل منكس الرأس. كان فؤش يحادث نوال في المحمول ويضحك عالياً، يكركع ثم أنهى المكالمة.

نام سيد بجوار فؤش، شخر شخيراً عالياً.

خرجت نوال مع نفيسة مبتهجة وردية اللون وكأن حجراً قد انزاح من على صدرها. تنفست الصعداء، همست في أذن نوال :

- تصدقي يا بت، لما الواحد يحلم براجل ويعاشره في منامه أريح وأنضف ! طرقعت نوال اللبانة وقالت :
- قُطعوا رجالة الزمن ده، رجالة مع نسوان غير نسوانهم، ونســـوان مع نسوان، ورجاله مع رجاله، ونسوان مع رجاله غير رجالـــتهم، كـــإنهم كلهم معمول لهم عمل، يا ستار يا كريم استر يارب على ولادنا.

٢٠٠٦/١/٢٩

منمنمات نسجية

الوطـــن

سألت أحمد متلهفاً:

▪ إيه هو الوطن؟!

تململ في مقعده، تنحنح، ثم أجاب وهو ينظر إلى كوب الينسون المتناقص قائلاً:

▫ هو اللؤلؤة المحفوظة في قلبك فين ما رحت، تنبض فيك، تتوهج وتتلألأ وتبدو نضراً على الدوام.

شدّ الجالس إلى جواري نفساً من النارجيلة، تحرك بكرسيه حتى صار لصيقاً بي. نفث الدخان في الهواء في زفرة قوية، ثم قال:

▪ يا راجل، هو فيه في الزمن ده لآلئ، الوطن هو الزحام والتراب والتعقيدات الإدارية.

ابتسم أحمد، رشف رشفة من كوب الينسون الذي كان قد تناقص إلى الربع وقال:

▫ ماهو ده برضه جُوّة اللؤلؤة..

قام الجالس خلف أحمد، تاركاً زميله في لعب الدومينو، حاملاً كرسيه، جالساً بجوار أحمد، سائلاً إياه:

▪ هو البيه بيلعب الدومينو عادة ولا أمريكاني؟!

شـــرب أحمـــد ما تبقى من الينسون، نظر إلى الرجل نظرة قوية، ثم قال:

▫ أمريكاني..

وضـــع الجرســـون كـــوب الكـــركديه الأحمر القاني أمامي، وكوبين من الماء، سأل لاعب الدومينو إن كان يشرب شيئا، فقال:

▫ سفِنْ أَبْ..

قـــام أحمد وأحضر الدومينو، فرشها على المنضدة الرخامية البيضــــاء، عـــدّل مـــن جلسته بحيث صار قبالة اللاعب، وصار اللاعب قبالته، فانتحيت أنا والجالس إلى جواري جانبًا.

جاء الجرسون مرة أخرى، سألني وهو نصف واقف، نصف مائل:

▪ هوّ البيه بيشتغل في لندن؟

أيوه.

تعرف مصطفى بن الحاج عطية؟

أيوه.

▪ أخباره إيه؟

اشـــتغل عند تاجر مصري كبير، ظبطه وهوّ بيجامل الزباين

المصــــريين بعــد مقاضاتهم أجور شرايط الفيديو، طرده، وجاب عامل إسرائيلي بداله؟!

صاح الذي في جواري مشمئزًا:

- يا ساتر يا رب.. إسرائيلي!!

قال رجل نحيف ضئيل، فاتحاً فمه عن أسنان صفراء بعضها ذهبي:

- مالـــه الإســـرائيلي، ما هُمه ولاد عمنا برضه، ثم بيتكلم عربـــي وعـــبري وانجلـــيزي، وتلاقيه أكثر أمانة وانضباط من مصطفى!! الله هوّ الحق يزّعل؟

مضــــى الجرســـون يـــرقص بالصـــينية، يغني وينادي على الطلبات بصوت عال.

بـــدا أحمد منشغلاً باللعب، منهمكا، متعبًا. أزاح قطع الدومينو قائلاً في انهزام:

- أنا مش مرتاح للأمريكاني!!

قلت:

- هَوّن عليك، أنا لازم أمشي...

قـــام واقفاً، فقمت واقفاً، وكذلك قام كل الجالسين إلى جوارنا، احتضــــنني بشدة، قبلني في وجنتيّ، قبلته في وجنتيه، شممت فيه رائحـــة الينســـون مختلطة بدخان السجائر، ضحك وهو يشدّ على يدي متسائلاً:

▫ إيه هو الوطن؟!

ضـــحكت عالـــياً، تأملـــت وجوه الواقفين إلى جواري، وإلى جـــوار أحمـــد، ووجوه الجالسين حولنا وخلفنا، ووجوه الرائحين والغادين، والجالسين على الأرض، ثم قلت:

▪ اسأل عبده الجرسون...

اندفـــع عـــبده يجـــري مسرعاً يرقص بصينيته، وقف أمامنا كالتلميذ، سأله أحمد:

▫ البيه بيسأل إيه هوّ الوطن؟!

حـــكّ عـــبده فـــروة رأسه، حرّك القلم خلف أذنه، تأمل كل الوجوه، دندن بأغنية ترحب بعودة أرض سيناء، ثم قال:

▪ هـــو حَـــبّة حلبة مُرّة، لكنها آخر حلاوة، حلاوة عليك يا بيه!!

مضـــى يرقص بصينيته على أنغام الأغنية مختفياً في زحمة المكـــان والدخان، وأصوات الناس الكثيرة جداً، الجالسة والواقفة، المنتظرة والمسترخية، على حدٍ سواء.

مايو ١٩٨٥

حـــوار مع البحر

تـــنهد تنهـــيدة طويلة، تأكل البحر الواسع، ملأ صدره بنسيمه البارد المالح ثم قال:

- تعرف أنا محتاج لإيه؟
- لإيه؟!
- بحب جديد!

ياه..... دانت يا راجل عجزت، ثم أنت نسيت إنك متجوز!!

ابتسم نصف ابتسامة ثم قال:

- عجزت إيه أنا لسه ٣٩ سنة، يعني طفولة ما بعد النضج، أما مسألة الجواز دي فأنا لا أملك لها رد..........

خرجـــت نهلـــة مـــن الـــبحر، تـــتلألأ قطراته فوق جسدها الـــبرونزي، تهـــتز فتهتز القطرات اللؤلؤية، تنسحب على شفتيها بســـمة ملأى بالشهوة، تغوص قدماها في الرمل الساخن، اقتربت، ثـــم اقتربت حتى سدّت عنّا عين الشمس، وصدر البحر، وجموع الـــناس. ضـــحكت فـــي دلال وهي تجلس على كرسيها القماش،

سألت:

- إنما كنتم بتتكلموا ف إيه؟..

قلت مجيباً:

- أبداً ... عبد الفتاح كان بيقول إنه محتاج لحب جديد!

هَــزّت شــعرها الليلي الفاحم المتهيج الأثيث فانتثر منه على وجهينا، يبللهما يبردهما، تاركاً رذاذا مالحاً فوق شفاهنا، قالت:

- ما هو سوسن مراته من غير ما تقوللي حاجة فهمتني كل حاجة.

انتفض عبد الحميد، مال إلى الأمام قليلاً سائلاً نهلة:

- إزاي يعني؟!

- يعنــي .... عينــيها كان فيهم حزن وأسى... كأنها تنعي شيء عزيز، تشوهت صورته قدامها!

ابتســم عــبد الحميد وعاد يسند ظهره على الكرسي القماشي معاوداً النظر إلى البحر.

قامــت نهلة من كرسيها، جَرَتْ أمامنا فبان فخذاها مرسومان بدقة مكتنزة تتبلور عند مفصلي الركبتين من الخلف، تنسحبان في ساقين جميلتين كلوحات مايكل أنجلو.

جرت وجرت حتى أخذها البحر، ولم تعد في مرمى بصرنا.

سألني عبد الفتاح في اهتمام:

- إنما متعرفشي ليه ماجد وأحلام انفصلوا؟

اعــتقد لأن أحــلام كانــت متصورة أن ماجد البطل الخارق الجديــد، السوبرمان العصري، الفاهم في الأدب والسياسة والطب والهندسة، خال من العيوب، أوربي التقاليد، شرقي التعابير ويلعب بالبيضة والحجر.

هزّ عبد الفتاح رأسه في حيرة ثم أعقب:

غريــبة... أنــا ســمعت غير كده، سمعت أنه إنسان متسلط وقاسي جداً...

يعني إيه؟.. كان بيضربها؟!

لأ... القســوة في الكلام، في الصفات، في ردود الأفعال، كل ده يوجع أكثر من الضرب...

- يمكن ....
- عارف مين كلمني امبارح؟!
- مين؟!
- سميرة مرات محسن!
- ياه.... هي لسّه فاكراك؟!
- آخ، قــال إيه، بتسألني إذا كنت لسه عازب ولاّ لأ عشان عندها عروسة.؟!
- طبعاً تلاقيك قلتها زي ما بتقول دايماً إنك عجوز الفن!
- آه ..... فكــان ردها أن أنا أناني وهستيري ومحتاج حد ياخد باله منّي!

▫ دادة يعني!

هبـــت ريـــح خفيفة عفرت وجهينا بالرمل، رفع عبد الحميد نظارته الشمسية، مسح عينيه بيده اليمنى. أعاد النظارة على عينيه مرة أخرى، ثم سألني:

إنما أنت قلتليش؟ أنت تعرف نهلة منين؟!

نهلة..؟!

▪ آه.......

▫ نهلـــة دي زي بنتي، بنت جيراننا، الفرق بيني وبينها ٢٣ سنة!

▪ وناوي تتجوزها؟

▫ ده كلام برضه يا عبد الحميد؟! رجالة كثير عندهم رغبة عشـــق بنات المدارس المراهقات، ما سمعتش عن فوزي بيك اللي كـــانوا بيجيـــبولوا بـــنات صغيرات بالزي المدرسي يقعدهم على حجره ويأكلهم شكولاته!

▪ ســـمعت... بـــس نهلة مش بنت مدارس، ويتهيأ إنك مش زي فوزي بيك!

▫ لا.... نهلة بنت مدارس، بس فايرة شوية وأنا زي فوزي بيك بس مثقف يعني!

ضحك عبد الحميد عالياً ثم قال:

قلت: يعني.....

تنهد عبد الفتاح تنهيدة طويلة، تأمل البحر الواسع، ملأ صدره بالنسيم والهواء الزفر، ثم راح في سبات عميق حتى سقطت رأسه على صدره وبدت منكسة كأعلام الدول المهزومة.

مايو ١٩٨٤

علي ووزة

كانت تدعى وزة لكن اسمها الأصلي كان سعاد. ممتلئة مدملكة بيضاء ذات شعر أسود فاحم كالعاج، تغطيه بمنديل ملون يتدلى منه الترتر، تسكن الدور الثالث من ذلك البيت القديم في تلك الحارة الضيقة. كان علي يسكن الدور الثاني ويعشق سعاد أو وزة بكل حواسه. كان نحيفاً شديد السمرة، شديد الانفعال، يرتعش بالعاطفة أينما راح وأينما حل، حتى مع الجماد ومع الدراجات التي كان يصلحها. كانت سعاد تتفنن في إغراء علي وغير علي من كل شباب الحارة ورجالها، تتقن تلميع شعرها خارج إطار المنديل ذي الترتر، مرة بالزيت وأحيانا بالجاز، فتجعله يلمع لمعانا متوهجا يفوق لمعان الترتر، لمعان أسود راق يتناقض في جمال مع بياض بشرتها الناصع ويتفق معه في نعومته الخالصة.

كان علي يحب وزة ويموت فيها، بعد انتهاء العمل، وفي أيام الأحد كان يداوم على التطلع من شباكه إلى وزة وهي تتثنى، تهز الترتر وشعرها، تنثره على كتفيها العريضين، وترمي

خصـــلاته وذؤاباته على صدرها الكاعب، تلمح التعابير المشتاقة المحـــترقة في عيني علي، لكنها لم تقل له شيئا، أي شيء داعبته بحركات جسدها، وإغراءات الفطرة المتمكنة منها، وتركته معوج الرقـــبة، مســـطح الـــرأس، مثنى الجذع، لا يملك من دنياه سوى التطلع إلى فوق، سوى العشم في أن ترضى سعاد، وأن تذهب أمه لتخطبها له، لكنه كان يعرف تماما أن الأمنية مخنوقة، وأن البنت وزة عيـــنها على المعلم الجالس في صدر الحارة يدخن النارجيلة. لم تملك سعاد أو وزة إلا أن تشاغل علي، ولم يملك علي سوى أن يـــتطلع إلى فوق وأن يتمنى. كان يحلم بذوبان بشرته السمراء جدا فـــي بشرة وزة البيضاء الشاهقة، كان يحلم بأن يتزوجها على سنة الله ورســـوله، وبـــأن يخلع المنديل من على شعرها الأثيث، وأن يرمـــيه على الأرض ليحدث صخبا وضجة. حلم علي كثيرا، لكنه لـــم يتمكـــن من تحقيق حلمه، ولم يتمكن أيضاً من الإمساك بشعر ســـعاد، أو بمنديل رأسها المزركش، ولم يملك التوقف عن التطلع إلـــى أعلـــى حتى بعد أن رحلت وزة عن الحارة، ذهبت إلى غير رجعـــة لتسكن بيت العز، حتى بعد أن صارت أماً وفقدت الكثير مـــن جاذبيـــتها وإغراءاتها المعهودة. فجأة، وجد علي نفسه أمام المـــرآة مبهورا بما رأى، تأمل رقبته وكتفيه فوجدهما يثنيان مثل الأوزة، ووجد نفسه غير قادر على التوقف عن تلك الحركات التي طالما عشقها فعشقته وتمكنت منه.

خـــرج علـــي من عيادة الطبيب مثنى الرأس، معوّج الرقبة، والرعشـــة توتر عضلات كتفيه. جلس على كرسي المعلم الشاغر في صدر الحارة، ورمى ببصره إلى حيث كانت وزة تقف. كانت النظرة مستقيمة، مرتاحة، لم تلتو فيها رقبته، ولم ينثن جذعه، ولم يلتف رأسه.

اســـتغرق علي يحدث نفسه التي طالما حسدها لأنه كان قاب قوســـين أو أدنى من سعاد، نعم، تحتها مباشرة، وعلى الرغم من ذلك فلقد اضطربت رؤيته لها، شم رائحتها، وأحس بدفء جسدها عـــن بعد، وكاد يسمع صوت نفسها، لكن موقع المعلم كان يسمح أكـــثر، بـــنظرة أشـــمل، وبـــتعمق أكبر، يلم تحت جناحيه البيت والحـــارة، المكـــان والـــزمان. بلع علي ريقه، شد نفساً عميقاً من النارجيلة، طرد الدخان من أنفه وفمه في عصبية كتم دموعه، دسَّ قدمـــيه في حذائه أكثر، لمَّ جسده في ملابسه أكثر، توجه إلى أمه والتصـــق بهـــا أكـــثر، انحنى عليها وهمس في أذنها بما رغب، ومضى. تزوج علي من بنت بيضاء مدملجة ذات شعر أسود فاحم لامـــع يزيـــنه منديل رأس بترتر ملون، لكنها لم تعرف كيف تهز كتفـــيها، ولـــم تتدلل وتتأمل وتتحرك مثل وزة. دفن علي بشرته الســـمراء الحـــادة في لحم زوجته البيضاء البض الناعم كشعرها وصـــوتها، وخلـــف منها ولداً وبنتاً، ولكنه شوهد وهو يخرج من الحـــارة مثـــنى الجدع، معوّج الرقبة، مرتعش الكتفين، حلم وعند

عودتـــه بأن يجلس على كرسي المعلم الشاغر، ملأ عينيه بمرأى المكـــان وبما حوت ذكرياته وبما ضمه قلبه من مشاعر. شد نفساً عمـــيقاً مـــن النارجيلة فتوهج الفحم بالنار، اشتعل غضبا بالدخان الكثـــيف الـــذي تمكن من أن يحجب الرؤية عن، لمكان والزمان للحظات.

يوليو ١٩٨٨

ذات الشعر العاجي

ازدهر شعرها الأسود العاجي، وازدان بألف لون ولون ....

امتشقت الأثير بقامتها الممتدة الرائعة مُفجرةً الجو حولها بكل العطور التي لم يبتدعها العطارون بعد.

تمجـــدت كالأســـطورة وكأنها بنت الجيران الشقية، صفَرت للولـــد الـــذي دعاها إلي السينما فمرَ وعدّى الشارع بين السيارات المختلطة والمختلفة.

كان قد دار حولها ولفَ سبع لفَات من مكان مفرداً قائلاً:

■ لست أنا التعلب الذي فات وفي ديله سبع لفات لكن ممكن تيجي معايا السيما؟

ضحكت حتى اهتز شعرها العاجي ألف هزة وقالت:

□ إيه يا راجل أنت ...؟

انحني ووجهه يحمر خجلاً هامساً:

■ تيجي معايا السيما يا بت.!!!

هزت رأسها علامة الإيجاب وقالت:

- ▫ أيوه بس فيلم إيه ؟
- ▪ فيلم حلو قوي لنيكول كيدمان.
- ▫ يا سلام بس أنت قلت لي أنك مش بتحب البِيض!!

تدورت عيناها أكثر....

وتناسق حاجبيها أكثر....

ســاقت الســيارة باندفاع محسوب وهو جنبها، كطفلها تمرق وتعبر وتكسر وتضحك وتغرّد وتصرخ. تبتهج وتغني مع صوت الكاسيت الممتزج بصوت موتور العربية وبرودة التكييف.

كانــت لهــا حلاوة تصطاد الروح، تمسكها، تقبض عليها، لا تدعها إلا وتترك وراءها نطفة من اليأس غير المكتمل.

تمهــلاً عند باب السينما ولم يجدا نيكول كيدمان، ضحكت في شقاوة:

- ▫ فين بقي يا سيدي الفيلم بتاعك قال كالصبي الذي يريد أن يزوغ من الرد:
- ▪ خلاص بقي يا ستي نشوف فيلم تاني.

استســلمت لفكــرة أن تجــاوره علي كرسي السينما. وما أن ابتلعتها زحمة الناس والظلمة. وانتثرت أضواء الفيلم علي رءوس المشــاهدين، حــتى اكتشــفا أن الفيلم مملاً، كان عن امرأة فاقدة الذاكــرة تنســي حبيبها في كل مرَة تلقاه وتبحث عن حبيب آخر حتى تنساه، وهكذا ...

حرّكـــت قدميها في ملل، وبعض العصبية: بعضها من رتابة الفيلم والبعض الآخر من توتر اللقاء الأول.

ولما خرجا قادت سيارتها إلي مكانه.

تمني منها قبلة فترددت، ثم طبعتها علي وجنتيه؛ مضي وهو شـــبه حالم يتمني اقتناص اللحظة وتضخيمها حتى تصبح كرنفالاً واحـــتفالاً ومولد وفرح وسبوع وكل شيء لكن لم يمهلهما الوقت ولم تسمح اللحظة إلاَ بما سمحت به.

في الوقت الثاني ذهبا إلي السينما محدّدين الوقت والفيلم الذي كان عن الحب والحرب والرغبة والشهادة والغدر، ضمَ يدها قوياً إلي يده؛ فاهتز جسده من الداخل وتمكنت منه سعادة جمة، واحتواه حـــبورّ عظـــيم ... ولما انتظم العُقد بحبات الفلَ بينهما، قبلته على شفتيه فالتهمها داخل فمَه.

تأرجحـــت أيامهمـــا بين الشك واليقين، بين والحب والرعب؛ فلما إئتمنت إلى النوم داخل جوانحه قالت:

▫ لم أحس قط بشيء مثل هذا. مزيج غريب عجيب من كل الأزهار ولحاء الشجر وعصير كل فواكه الدنيا....

أشعل الشمعة القلب الكريستال، لكن لم تظهر الرسالة.

قالت:

▫ استنى شوية.

كان الحرس بالبدلات الرسمية، يقفون في الخلفية، لا يراقبون

القُـــبلة، فـــي مشـــيتهما ســـوياً جنباً إلي جنب، وكأنهما راقصان تعبـــيريان، لكـــل خطـــوة معنى، ولكل همسة لمسة، ولكل إيماءة إيحاء، ولكل ضغطة يد علي الخصر ثورة وانفجار.

ازدهر شعرها الأسود العاجي.

فانبـــثق مـــن داخلـــه القمر جلياً ناصعاً، وسط سواده يشرق للناس. كل الناس

فبراير ٢٠٠٥

"جشطالت"

لــم تكن في عينيها نظرة عشق أو إعجاب أو حتى تعبير عن الحــب، كانت نظرة شاملة تحوي كل شيء، حتى توتر الانفصال الوقتي المرتقب مع نهاية الأمسية. كانت نظرة تختصر كل وجدان العالم. نظرة! احتوته ولّمسته، بعثرته، رفعته إلى عنان السماء ثم حلقــت بــه وســط السحب وفرجته علي المدن والقرى، لفّت به الأنحــاء والأجواء، أشعلت الأضواء، وأطربت الساحات. همست في شوق عظيم يأكل المكان والزمان:

▪ عايزة أرقص معاك.

ضحك قليلاً في ابتسامة خجلى وردّ:

▫ بس أنا ما بعرفش أرقص.

طمأنته كالأم الرءوم وقالت:

▪ بس المسألة سهلة قوي.

ردّ تلقائياً:

▫ بس مفيش حَدّ بيرقص.

ضحكت ناظرة حولها ثم قالت:

- فعلاً ممكن كده نبقى إحنا فرجة المكان.

كـــان الفـــريق العـــازف (الباند) أسمر اللون، وكأنهم أفارقة أمريكان يعزفون الجاز، وعلي الرغم من أن ملامحهم كانت شرق أوسطية، بحسب تعبير ساسة هذا الزمان، إلاّ أنهم كانوا أقرب إلي ذلـــك الجـــو الزنجي الذي تمتشقه امرأة ورجل بميكرفون، صوت وأغـــان غربية كلاسيكية تضفي علي المكان جواً مختلفاً تنسى فيه تماماً أنك وسط القاهرة.

انحني الجرسون في أدب، زاد من تأدبه الأصلي؛ فبان وكأنه ينحنـــي لجمـــال تلـــك المرأة الخاصة جداً في تناغمها الشديد مع رجلها الخاص كذلك، انحني ثم سأل، مضي.

أمســـك هو بيدها، وأحسّ كما لو كان لم يمسسها قبل، كانت يـــداً مليـــئة تكتـــنز المشاعر وتولدها في نهايات الأعصاب، في أطـــراف الأنـــامل وعلـــي سطح الجلد. أما ضغطتها فكانت ثورة مشـــاعر واضـــطرام الـــنار فـــي قش بدا مغزولاً من وجودهما المضطرب.

اقتربـــت منه فزلزلت كيانه وطلبت منه أن تري صوره وهو بعـــد صـــغير، وكأنهـــا تسترجع الزمن، وكأنها بشطارتها تود أن تكـــون أمّـــه وزوجـــته وعشيقته وحبيبته، دنياه وآخرته، لحظته ومستقبله.

وكأنها تعود إلي الوراء لتحتويه في صدرها ولتعلمه الطيران والـــتغريد، ولما قبلته في فمه كانت القبلة غير محسوبة، لا يمكن تفاديهـــا، وعلي الرغم من أنها كانت خاطفة إلاّ أنها خطفت معها الوجـــود. وشـــردت مـــع الأفاق فبدا فستانها الأسود الكاشف عن بـــياض جسدها الرائق لوحة ولدت في لحظة خلق وومضة إبداع. انســـاب شعرها علي كتفيها، كان يخفي ضيقه من قَصِّها له، لكنه جـــاهد محـــاولاً استيعابها ككل داخل صدره وكيانه، لم يستكثرها علي نفسه لكنه حَسَد نفسه جداً واعترف بأنه محظوظ للغاية، وأن أمـــه بـــالفعل قـــد دعـــت له بالخـــير كثيراً. لما سألت عن كلمة (الجشـــطالت) التـــي جـــاءت فـــي حديثه المسترسل عن أدواته وخبراته، قال أنها كلمة ألمانية تعني أن الكل يعني الكل، ولا تعني أن الكـــل مجمـــوع الأشـــياء، انحنت برأسها قليلاً وبؤبؤي عينها يـــتحركان بســـرعة خاطفـــة وكأنها تود خطف المعرفة واللحظة ورجلها المنساب حديثاً لامرأته دون توقف.

▫ يعني ياستي إنت مثلاً، ممكن تكوني مزج عينيك الحلوة، وشـــعرك الأثيـــث، وجسمك الحلو، وذكائك المتقد، وغضبك غير المحســـوب، وأناقـــتك غـــير العاديـــة، صـــوتك المعبر المرتاح ومشـــاعرك الفياضة، لكن لو فصلناك وأخذنا كل من تلك الأشياء واحـــدة واحدة، وركبناها علي امرأة آخري لما صارت أنت، حتى لـــو كانـــت برسمك واسمك. لأنك أنت علي بعضك كده هو أنت،

مش حَدّ تاني خالص، (كلك علي بعضك حلو).

انبهرت بالحديث وتأملته ثم قالت:

- إنتَ راجل تجنن.

ضَمَّ يده إلى يدها ثم أراح يده على ركبتها التي كانت منسجمة جداً معها ومتميزة بالفعل.

ولما نهضا وركبا السيارة. انتقلا من الكوكب الذي كانا فيه إلى القاهرة مرة آخري. مضت عنه ومضي عنها وكأنها سنة الوجود، أن تلك اللُحمة تنشق وتلتحم ثم تنفصل وتلتحم دون أدنى تأثر بعوامل الطبيعة حولها. استمر طعم القبلة، أواخر الأغنية. رنين آخر وتر يعزف. فتحة الفستان. شكل الركبة، تدويرة الكتف، ضغطة اليدين، طعم الشفاه...

لمّت كل ذلك نظرة العينين التي كانت السر العميق والباتع وراء دملجة اللحمة ، ربط الوجود والتحام الأفكار، يعاكسهما فيعاكساه، كانا على درجة عالية من الكفاءة، والقدرة والتمكن للتغلب على كل ما يمكن أن يعكر صفو مساحة النظرة، وصفاء العينين؛ فإذا ضغطت الأصابع على بعضها، انفجر في الصدر مليون إحساس، وملأت المكان كل مشاعر البهجة والحبور والتفرد والتحقق دون أدنى شك.

أبريل ٢٠٠٥

الرجل والصبي والنخلة

١

أسند الرجل القصير المكتنز ظهره على النخلة الطويلة، الطويلة جداً، وضع ساقاً على ساق متأملاً الشمس في كبد السماء، ومعدلاً من وضع الجلباب الداكن محملقاً في وجه العجوز الواقفة أمامه متوسلة محملقة في تكاسله المغيظ قائلة:

- قم يا عبد التواب، اطلع النخلة وهات لنا بلحات!

هزَّ الرجل رأسه تأمل الشمس ولم يرد.

كررت العجوز سؤالها فهز الرجل رأسه ولم يرد.

جرى صبي نحيف طويل وكأنه عود القصب، جرى من ناحية الحقل إلى النخلة فعفر التراب، فدمعت عينا عبد التواب لكنه لم يحرك ساكناً.

قال الصبي وهو يلهث محاولاً التقاط أنفاسه ومحاولاً التفرس في وجه الرجل القصير المكتنز اللامبالي:

- قم يا عبد التواب اطلع النخلة وهات لنا بلحات.

هزَّ الرجل رأسه، تأمل الشمس في كبد السماء، خرج عن

صمته مزيحاً الذباب عن وجهه قائلاً:

- ولم لا تطلع أنت وأنت صبي ونحيف وقوي؟!

انتشى الصبي وانتفض واعتلى النخلة في دقائق يتسلق جذعها المحـــبوب محتضـــناً عودهـــا الصلب يتوحد بقدميه من نتوءاتها ويتعشق معها بيديه القويتين حتى وصل إلى البلح فتوقف.

توقف صوت تنفسه اللاهث.

ومالت الشمس إلى الأفق تستعد للمغيب.

نظرت العجوز إلى أعلى.

ونظر صبية كثيرون إلى أعلى.

تعلقت أبصارهم بالصبي وهو في القمة يمسك بالثمار.

نظـــر الصبي إليهم فوجدهم متعطشين شاحبين ويملؤهم شوق كبير.

كـــان الـــرجل القصير المكتنز مازال يسند ظهره على النخلة الطويلة الشاهقة يزيح الذباب عن كرشه وعن عينيه.

قال:

- ارم بالبلحات يا ولد!

رمـــى الصـــبي بكل البلح دفعة واحدة على رأس عبد التواب تحلـــق كـــل الصبية يتقافزون، يتعاركون، وينتشلون الثمرات من فـــوق رأس عـــبد التواب الذي كان قد سقط على صدره. تقدمت العجـــوز إلـــى الـــرجل فتحت عينيه فانغلقتا، رفعت رأسه فسقط،

نظرت إلى أعلى وقالت :

▫ يا ولد عبد التواب مات .

نزل الولد بسرعة الشهاب، أزاح جسد الرجل القصير المكتنز بعيداً عن النخلة الطويلة الطويلة جداً .

تنفســت النخلة في هدوء، كان الليل قد حلَّ، وكان القمر يطل راصداً حركة كل الناس في كافة أرجاء المكان.

سبتمبر ١٩٨٩

الخواء

كـــان خاويّـــا خواء الفراغ الأبيض الممتد وكان بارداً برودة القطــب الشـــمالي الجـــامد، وكان يمشي في الممر الكابي الضوء يـــزحف يجـــر قدميه ينتشلهما ملتجئ إلى فراشه باحثاً عن الدفء فيصـــطدم بالـــبرودة المثلجة التي تصدم جسده وروحه فتثير فيه القشـــعريرة الممـــتزجة بـــالألم والحزن يتلمس جسده جزءا جزءا باحـــثا عن الحياة فيجد الأطراف مبتورة وهي قائمة ويجد القتامة تشع من جلده فيتخفى تحت غطائه هرباً من نفسه وهرباً من الممر وهربا من كل الأشياء التي تقهره وتسحقه وتضعه تحت ضروسها تمزجه بلعابها وتلفظه إلى الخارج حيث الضوء والدفء وحيث لا أحـــد ينـــتظره ســـوى نباح كلب البيت المقابل وصوت الحارس المـــتجهم وصـــرير عجلات الأطفال الزاحف على الأسفلت النائم لعرض الطريق.

وقفـــت أمامه على ناصية الشارع رقيقة العود ممشوقة القوام منتـــبهة ترصـــد حـــركة البشـــر والأشـــياء بعينيها الدائرتين في

محجريهما كلعبة أطفال يابانية شرهة للمعرفة.

مشـــى بعـــرض الطريق، ثم قطعه بطوله حتى اقترب منها فألفاهـــا مختلفة عما رآها من قبل ومختلفة عن كل النساء وغريبة عـــن الشـــارع وكأنهـــا طير أسطوري نزح من فوق جبال الألب مهاجرا نازحا في مهمة محددة.

وقف أمامها وسألها:

■ من أنت؟

قالت وهي تنظر إلى السماء:

▫ أنا المتعبة المجهدة الهاربة من الممر البارد. خرجت إلى النور بحثاً عن الدفء.

ضـــحك وصـــاح وهو يتطلع إلى ردائها الصوفي المطرز ثم قال:

■ وأنـــت تلبســـين الصوف وتتدثرين بالقطيفة وتشكين من البرد؟

قالت وهي تعقد ذراعيها وتشبك يديها:

▫ نعـــم أنـــا الآتـــية من الخواء أنا ذات القلب الضارب في العـــتمة كالوطواط، وأنا كالحدأة العاجزة عن الخطف وعن الكره وعن الحب رغم أني املك كل الإمكانات، ابتهج وارتعش.

تقدم منها فصدته بامتداد ذراعها.

تـــأمل صفحة وجهها فوجدها ترتعش كوجه البدر في صفحة النهر المرتمي على أطراف المدينة.

عـــاد إلى الخلف يمشي إلى الخلف حتى دخل من بابه بظهره ومشـــى في ممره الشبه مظلم واستلقى على فراشه المثلج وامسك كوبـــه الحـــاد وكتابه الثخين وغطاءه المتعرج، سلم نفسه وكورها كالكـــرة، ســـمع المذياع وقرأ الجريدة وشاهد التلفزيون ونقب بين شـــرائط الفـــيديو، كتب ورسم وأضاء الأنوار، دق مسامير كثيرة علـــق عليها لوحات كبيرة، أدرك بعمق بصيرته حجم البرودة في أوصـــاله وعمـــق الخواء المنتشر بطول وعرض المكان كالفراغ الأبيض الزاحف على كل شيء.

أكتوبر ١٩٧٧

الزوجة والريح

همست لنفسها: ها هو الغسق يغرق ولن يطلع الا غداً، لا لن يطلـــع أبـــداً، ربمـــا لأن الـــريح. تلطمه وتلطمني، تلطم الأرض والسماء، تضرب البيوت والأشجار والإسفلت.

غـــرق الغســـق في لجة الضباب الوحش، وكأنه يمضي بلا رجعـــة. ضباب كثيف يغلق الجفون وتتشنج معه عضلات الفكين وهي تجز مع الأسنان على عظام الجمجمة.

بدت المدينة كتلة من الغضب. تلال مركبة من النوافذ المتعبة من صفق الريح وخبط المطر المتكاثف المتدافع بألف وجه، بألف يد، وبألف ذراع. تنام المدينة أو تموت هكذا في حلق الغسق، ولا تقوم حتى لو عاد الضوء.

كانـــت المـــرأة قد فقدت وظيفتها ورغبتها منذ بضعة أعوام، وكـــان الـــزوج قد فقد عمله وبيته، متجهاً جنوباً مع مسار الريح، ربما يتمكن من فتح النوافذ ولو على الاستحياء.

لما أضاءت المصابيح النوافذ، صارت لجة الضوء الصناعي

كسرة الجنين تحاول الزحف الى مشيمة الأم في نهر من الفضة.

زحــف الرجل والمراة الى بيت الأم الحماة. أمُ الرجل وحماة المرأة التي كانت تغلظ في القول، وكأنها تستمد من الصخر العتي والــريح الغضوب ملامح الشجار المستمر مع تلك المرأة الغربية، وهــذا الولــد العجوز وقد عادا بخفي حنين، لا بيت ولا ولد ولا ذكريات. حفنة جنيهات وبعض الأساور ورغبة جامحة تبحث عن عربة نقل ضخمه يتوسد كرسيها مقعدته الضخمة. قال وهو يتنفس في بطء وضيق وصمت:

▪ كــنا نحتســي الخمر سويا وبافراط، ثم احتسته هي أكثر بكثــير. كانــت النبيد بالبراندي، فكان المزيج ياكل الروح والكبد. اضطررت إلى تغييره بالبيرة السوداء المليئة بالفيتامينات.

قهقــه صاحبه السمين في البار المعتم، ترجرج جسده، لمعت انــف الزوج بسواد مدبب وكأنه سهم يشير الى الريح العاتية وهي تضرب الليل البهيم وما حوى.

ســال الصديق السمين الزوج عن عافيته الجنسية، سأله وهو يرتشــف نصــف الكاس المرة السوداء القاتمة، والريح تخبط باب البار، تهتز الارض من قتامه الوجود ونشرات الاخبار وعشرات الســكارى علــى الخشــبات المنكسرات والمكسورات في العتبة الامامــية وحــتى المــرحاض الذي لم ترحمه خبطات الريح ولا اصوات السكارى فغمرته الفضلات برائحة نتنة.

ضـــحك الرجل وهو يشرب البيرة السوداء، يضم فمه الضخم بين خديه المتوردين المتسخين، وشعره الأسود الفاحم كفحم المدفأة الملتهبة المكفرة، ضحك وقال:

▪ هذا ليس أمراً بذي أهمية، لم يكن قط بذي أهمية.

نامـــت المـــرأة في حضن رجلها، تلهث كئيبة المحيا، متعبة العضلات، همس في أذنها بسؤال صاحبه، ضحكت وكأنها تتأوه، قالـــت إنها أيضا لم تهتم، غير إنها احتضنت يده المكتنزة المتسخة تحـــت الأظافـــر. أحســـت بأمان غريب ورغبة نائمة لا تستيقظ. فتحت عينيها في بطء شديد وقالت:

▫ أمـــك قاســـية، شديدة القسوة، كيف أنت بهذا الحنان، وقد رضعت كل تلك الفظاظة؟

أحـــنى رأســـه خجلاً، بدا وكأنه ينصب للريح العاتية، وهي تخبط الدنيا بكف صارمة، أجاب:

▪ لـــم أرضـــع منها قط. كنت اشرب الروعة من أبي، لكنه مضى وأنا في الثالثة من عمري، ولم أره بعدها قط.

تلمســـت بـــيدها النحـــيلة وجهه الممتلئ، سعلت سعلة خفيفة، ارتعـــش جسدها كله رعشة واحدة، فضمها إليه، لمها ودفن رأسها فـــي صـــدره. أحـــسَّ أنفاســـها في شعر صدره الكث. سرت في أوصـــاله أحاسيس غريبة راودته حين كان في السابعة من عمره. أسبل عينيه ونام، قامت برأسها قليلاً،

تأملت وجهه المنور كالطفل الغرير الذي ما فتئ وإن حانت له الفرصة حتى نام على الرغم من الأرق والقلق، الريح والمطر، الهم الثقيل والأم التي لا تكف عن الصراخ.

أكتوبر ١٩٨٩

ارتحالات

زينـــب

جالسة كانت على الأرض، تثني رجليها تحتها، تتطلع إليه في حزن واستحياء، تبلع ريقها وكأنها تبلع معه المرّ والعلقم، قالت:

▪ ماذا سأفعل يعني يا عبد السلام؟ لقد سلمت أمري لله..

سأضع حجراً على قلبي، سأبحث عن القمر في ظلمة السماء، سأناديه وأسأله عنك كل ليلة.

كان عبد السلام واقفاً بطوله يشمخ في فضاء الغرفة البسيطة، وكان يمسك بيده اليمنى حقيبته الملأى بأغراضه الشخصية.

كـــان مازال في جلبابه البلدي الغامق، وكوفيته الفلاحي التي تزيـــن صدره وتدفئ رقبته. مسحت عينيها من الدموع بظهر يدها اليمـــنى، وهي تسير إلى الخارج حاملة الملابس المتسخة والوعاء الكبـــير وصـــابون الغسيل، اتخذت لنفسها مكاناً قريباً من الدجاج والأولاد وانهمكـــت في غسل الملابس؛ بينما انحدرت دموعها في غزارة على خديها ونحرها، سقط بعضها على الوعاء المفتوح الفم أمامهـــا، لكنها لم تحس إلاّ بالخدر يسري في رجلها نتيجة جلستها

المثنـية الثابـتة، ونتيجة التفكير العميق، فقامت وحركت رجليها، صـاحت علـى الأولاد حيـن تطور لعبهم إلى الشجار الخفيف، ورمت بالحب إلى الدجاج الذي أضجره الجوع والملل.

صـاحت السـيارة الأجرة في غضب نافرة الرمل والتراب حولهـا، أخـذت معهـا عبد السلام فرفعت زينب رأسها، ومشت بخطـوات ثابتة إلى غرفة نومها ترتبها وتسد فتحة الشباك التي ما لبثت تدخل الضوء والتراب والذباب.

ألقـت بنفسـها علـى ظهرها على سريرها متأملة السقف والحوائط، تحسست بطنها وكأنها تود التأكد من شئ ما، غير أنها قامـت وفردت شعرها أمام المرآة، ومشطته بانتظام وابتسمت في غموض، فبدت صورتها أمامها وكأنها نسخة حية من الموناليزا.

دخـل ولدهـا الأكـبر مـن الباب يجري فطالعته من خلف صورتها في المرآة، وحادثته أيضاً من خلال صورتها في المرآة وهو يلهث مهتماً متحمساً قائلاً:

- أمَه الجاموسة بتولد..

جرت زينب وهي محلولة الشعر، التف حولها الأولاد، جاءت أم السـعد لتساعدها، ولما ولدت الجاموسة تركت خلفها جاموسة صغيرة وكثيراً من الدم والخلاص.

مسحت زينب على وجه الجاموسة المتعبة، لمّت شعرها الذي أدركـت أنه محلول ومكشوف، انحنت لتقبل ابنها، رفعت هامتها

وتمشـــت فـــي اتجـــاه غرفتها ترتاح على ظهرها، تتحسس بطنها وتطـــالع السقف والحوائط، تسترق السمع في اهتمام إلى أصوات البهائم والسيارات والعيال.

وكانت قد نسيت غسيلها في الوعاء المفتوح الفم فتعكر ماؤه وصار داكناً.

فبراير ١٩٨٩

البعيد عن العين

كانت خصلة شعرها الخلفية مازالت مبتلة، بينما كانت مقدمة رأسها بشعرها الملفوف يكاد يجف، يحيط بوجهها كالهالة، فتزيده وضوحاً وهدوءاً، وما أن أحاط بوجهها الشاهق حتى توسد رأسها يـــده فنامت خصلتها المبتلة على يده الدافئة تمتص منها حرارتها، تـــأخذ يده منها البرودة، تحاول تهدئته؛ فيزداد سخونة وتزداد هي قلقـــاً. تـــتحرك حوالـــيها وكأنها تراقب الجماد في سكونه وكأنها والخـــوف يأكلهـــا من غير الجماد تتحرك يمنة ويسرة، منزعجة، غـــير ثابتة الخطى، غير منمقة الكلام، غير محددة الهدف تروح وتجئ داخل نفسها، وخارج أطرها المعتادة وكأنها كسرت قوقعتها وتنفست الهواء المتاح رغم ضيق المكان والضوء الشاحب ورغم الزمن المتواصل، دمعت عيناها ونظرت مباشرة في عينيه وقالت:

- صحيح البعيد عن العين بعيد عن القلب؟

ابـــتعد عـــنها قليلاً متأملاً ملامحها وقد أكله الشوق وتركت الأيام خطوطاً على جبهته السمراء تنفس وتنهد وترقب انفعالاتها،

ثم أومأ وقال:

▫ نعم.. صحيح لكن العين في البعد لا ترى سوى ما تعمل من أجله، والقلب يجف فلا يعشق سوى ما يبتعد عنه..

ضحكت ضحكة خفيفة وحركت رأسها فتحركت الخصلة المبتلة في يده تدغدغها وتسقيها وتدعوها، قالت وهي تضمه وهو يضمها:

والترحال أصبح غيتك. وتبعثرت أحلامنا على أجنحة الطائرات وصرنا كالمجانين وكالمراهقين نتعشق ونتحاب على الورق.

ضمها إليه بقوة حتى أحس بضلوعها تنحفر في باطن يده، وبخصلة شعرها تنغرس في يده الأخرى، ثم ابتعد عنها ودعا المكان والهواء يأخذ راحته بينها وبينه فصار يراها ككل تجلس وهي تثني ركبتيها أمامها وقدماها تبرزان من ردائها الطويل، تتشابك يداها حول رجليها وكأنها في معابد الفراعنة تمارس الطقوس والشعائر.

قال بعد صمت:

▫ سافرت إلى بلاد الهند والسند، وسافرت إلى بلاد الشمال، بحثاً عن لقمة العيش.

▫ أنزلت ساقاً من ساقيها، تأملته متعجبة متسائلة:

▪ وأنا سافرت إليك في المدينة، شارعاً شارعاً، رحت

الميـــناء والمطار، زرت المحلات والدروب ورأيتك مراراً لكن لم أمسك بك وأيضاً لم تأتني حينما انتظرتك.

أدار ظهـــره إلـــيها ونظـــر من النافذة، كانت زجاجية تقطع الضوء الساطع الآتي إلى مربعات محفوفة بالقتامة تنفرج وتنضم، تغيـــب وتبان كشعاعات منفردة، وكضوء فياض يفترش الحوائط، ينعكس على الزجاج وعلى الأطر وعلى حواف الورق المترامي، نظـــر إلى حقيبته الملقاة وأوراقه المنتثرة. إلى جواز سفره المتآكل من الحواف والمشبع برائحة العرق، قال وكأنه يكلم النافذة:

▫ أنت تعرفين أنني لا أستطيع الارتباط بك نهائياً، فأنا مثل ابن بطوطة دائم الترحال.

جاءه صوتها من خلفه مجوفاً يحمل رائحة الحوائط ورطوبة الجدران..

▪ نعم يا مجدي لا تستطيع..

أدار ظهره فصار مواجهاً لها وبدا بهيئته الحلوة منطبعاً على الضوء على مربعات النافذة، قال:

▫ أنا ..

قالت بسرعة مقاطعة:

▪ أنتَ هو أنتْ، الصوت والصدى تموت في تراب أسفارك ولا تحب إلاّ نفسك..

اقترب منها حتى صار لصيقاً بها. أمسك بخصلة شعرها بيد

واحــدة. وجدهــا قــد جفت وأحس بصدرها يعلو ويهبط، خبأت دموعها، ضمته وضمها، كانت قد زالت عنها الحيرة وذهب عنها الخــوف، فانفلــت من بين يديها، حمل حقائبه وجواز سفره، فتح الباب وخرج، قامت تتمشى إلي النافذة، توحدت مع طيفه المرتسم علــى مــربعات الضــوء ورأته من خلال النافذة المقسمة يذرع الطريق بخطى متعبة يبتسم في جاذبية لبائعة الفل التي لاقته على قارعة الطريق صائحةً بأعلى صوتها:

- الفُل، الفُل يا بيك.. ربنا يخلّي لك الست..

سمعته يضحك مجلجلاً قائلاً:

- وأين هي الست يا بت؟.

ضــحكت بائعة الفُل ملوَّحة بعقد الفُل، ضحكت بصوت أعلى منه مشيرةً إلى النافذة المقسمة وكانت تبدو من خلالها ذائبة خلال عــتمة الغــرفة تفضحها الشمس المسلطة عليها، لوّحت له بيدها، لــوّح لهــا بيده، تناول عقد الفُل من بائعته، علّقه على رقبته وقفز إلــى داخــل الــباص القديم المزمجر المبتعد المختفي عن جميع الأعين.

نوفمبر ١٩٨٩

شَادِي عَبْدْ المَوْجُودْ

بيـــن أهـــل الحيّ، سرت همهمة حية حيوية ساخنة سريعة، خفـــيفة، عبقرية، كأنها الخبر الطازج، الفضيحة الجديدة، الفيروس القـــوي، الإشاعة المتمكنة، التسالي اللذيذة، العدوى الكامنة الهادئة المكتومة. السر عندما يذاع، والسؤال الذي بلا إجابة.

أو عـــلّ الأمـــر كان قد أصبح حالة تؤنس الناس، تشغلهم، وتلهـــيهم، حالـــة تظهـــر في إيماءات الرءوس، تلويحات الأيدي، نظـــرات العـــيون. دارت وتدور حول شادي عبد الموجود، ذلك الكائـــن القاطن في الشقة الكبيرة على يمين السلم في الدور الثالث من تلك العمارة العتيقة.

كـــان ســـاكنًا قديمًا جديدًا متنقلاً، يأتي في زيه الميري، بدلة بولـــيس بيضـــاء فـــي الصيف وسوداء في الشتاء، مرتديًا الكاب المميز أحيانًا، وأحيانًا أخرى حاسر الرأس، تظهر صلعته جليّة.

كـــان نحـــيفًا طويلاً تنقصه اللياقة التي عادة ما تميز الضباط قبل تقدمهم في السن، وكما كان الزي الميري، كان اللبس الملكي،

غير مهندم، متسخ، تبدو عليه البهدلة واضحة.

أما رتبته فلم تكن صغيرة توحي بأنه ضابط تحت السلاح "أي شاويش مزمن، ترقّى بعد طول العمر، ولم تكن للواء أو فـريق مـثلاً، لكـنها كانت لعميد، رتبة تناسب سنه إلى حد ما. عمومًـا كان شادي عبد الموجود بهيئته المتبدّلة تلك، القاتمة اللون والشكل عاديًا معتادًا.

يـنزل من الأتوبيس من محطته المقابلة للعمارة. كان السائق يتبادل النظر مع الكمساري متفحصًا ذلك الكائن الحي عندما يطلع وحيـنما يـنزل، وحينما يضغط على أسنانه لتخرج كلمته بوليس، أو شـرطة أو مصـلحة تصـطك فـي فكّـيّه، تصـطدم بلحمة شفتيه من الداخل، وكأنه يريد أن يبصقها.

لذلك تعلم الكمساري وكذلك السائق وبعض الركاب المنتظمين علـى ذلك الخط، تعلموا أن يلتزموا الصمت، غير أن الكمساري كـان يـتوق للغايـة إلى معرفة كنهه وسؤاله عن الكارنيه، فثمة إحسـاس غريب تشارك فيه أهل الحي وركاب الأتوبيس، على أن الأمـر قد لا يكون إلاّ خدعة، ولربما كان الكائن مجرد كومبارس أو لبـيس لرشدي أباظة وعز الدين ذو الفقار أو محمود حميدة في أفلامهـم الجمـيلة، يرفعون هاماتهم وورائهم كوكبة من العساكر الغلابـة. يـنقرون بشدّة على شراعة الباب القزاز، لكي يفتح أهل البيت، يفزعون ويهرعون مع باقي السكان بعيدًا. وقد يكون نصابًا

محترفًا، وربما كان ــ أيضًا ــ شيئًا آخر غير ذلك.

باختصار كان شادي عبد الموجود مريبًا للغاية، غذى بوضعه ومشيته الهمس والغمز واللمز، شغل ما يمكن أن يكتم فلا يقال، بين صاحب وصبية السوبر ماركت الملتفون حوله، الباعة الجوالون، العيال السريحة، وصبيان المكوجية، وكأنهم كلهم قد كونوا شبكة استخبارات وهيئة استعلامات تحاول فكْ الطلسم، حلْ اللغز والإجابة عن كل الأسئلة المعلقة.

ظلّ شادي عبد الموجود كائنًا شديد الغرابة والغموض، لكنه امتلك أيضًا سحرًا خاصًا، وعلى ما يبدو أنه كان مستمتعًا بما يحدث. يأتي إلى شقته الباردة، الوسخة، شبه المهجورة، على فترات وكأنه في مهمة؟!

يدخل العمارة من بابها الحديدي الصدئ نصف المغلق، نصف المفتوح، يعدّي على مدخل البيت الرطب بخطوات محسوبة، ينظر بطرف عينيه إلى غرفة البواب المفتوحة دائمًا، يلحظ البواب الطويل العريض المالئ مكانه كالفلق، وعلى الرغم من أنه كان نادر التواجد إلاّ أنه كان قد ملأ المكان باسمه وصيته وزوجته وعياله ضجة وحيوية، كانت زوجته المورّدة الخدين دائمًا لهلوبة تشتاق إلى المعرفة وفك الأسرار، معها أولادها الثلاثة المتبقين بعد هجرة أسئلة المعلقة. أمّا الأربعة الكبار ما بين زواج وعمل وسفر.

لــم يخــف شادي عبد الموجود حسده للبواب، حسده لمتعته، هيبــته، عــزوته، طاقــته، شعبيته وعياله، يحسوه على استمتاعه بالــتلفزيون الصغير، الدش الصغير الجديد، والموبايل الذي اقتناه ودعــا كــل مــن هبّ ودبّ إلى اللعب به والتفرج عليه، وبالطبع إفساده وتعطيله.

لم يكن الكائن شادي عبد الموجود يملك شيئًا، يفتح باب شقته فيصــرّ صريرًا جنائزيًا، يدخل إليها كأنه يدخل إلى بيت الرعب، يضيء النور الأصفر المهزوم، يجلس على الترابيزة القديمة، يفتح علــبة الســردين، يغمــس الخبز بالجبن الأبيض، ويحليّ بالعسل الأســود. ثم يهرع إلى غرفة النوم يجرّ رجليه بحذاء معفر منبعج الأطــراف، منحول الكعب، مشقوق الجلد، وشراب نتن يلم قدميه، يســتلقي علــى ســريره الرطب محملقًا في فضاء الغرفة وسقفها المتآكل الطلاء، اختفت قدرته عل الرصد والتحليل والتنكر فازداد بــلادة، تداخلت الأشياء والأسباب، بحيث لم يعد قادرًا على معرفة كُــنه تعــبه، وما الذي يجب فعله لكي يتحسن... تساءل بينه وبين نفسه، هل سبب تعبه حياته الماضية، أم الحاضرة، لماذا تدهورت علاقــته بأمــه ودخلت مساحة الكُره، لماذا تخلّى عنه الكثير من أصــدقائه وهل هو بسقفه النفسي الواطئ، ودماغه المتصارعة مع إمكانــياته وقدراتــه قــد سقط صريعًا ليعيش فقط، يأكل، يعمل، يتــبول، يقضي حاجته ثم ينام. تململ في نومته الغريبة على حافة

ســــريره العتــيق، وكأنـــه يخاف من الفراش ومن فكرة استغلال مساحته كلها.

تـــنهد متسائلاً، هل كان حقده على نفسه وعلى الآخرين أكثر مما تصورْ، هل هُزِم وأصبح معقدًا لا يتحقق إلاّ من خلال المقت والقنوط وبعض أحلام اليقظة.

نعم لقد أصبح شادي عبد الموجود مثل الرماد بعد الحريق، لا يتمكـــن مـــن الاحـــتراق أكثر، تذكر شبابه هذا الذي كان متفجرًا إبداعًا وعاطفة، فشل في حبه، فتحجر وتكلس ومات وعيه. تحول إلـــى شخص بليد، تختفي معالمه كل يوم حتى أصبح حلة محشي .. نعم، كما قالت له عبلة زميلته:

- إنت يا شادي بقيت بالفعل مجرد "حلة محشي"!.

يجلس متسمرًا أمام شاشة التليفزيون، يشاهد فيلمًا أو اثنين أو ثلاثة دون تفكير، دون رأي ودون تحليل.

قـــام من على سريره، تلصص من فتحات الشيش على المارة وســـكان العمارة المقابلة، وهم يحيون حياتهم بكل لوعتها حسرتها كـــانوا، هـــم فـــي المقـــابل ينظرون ناحية شباكه راصدين عينيه وتجسســـه. كـــان يشـــعر برعب حقيقي من الخواء. دخل عالمه الحقيقـــي في ثنايا عالمه غير الحقيقي، فتولد منه هذا الكائن الحيّ، الذي ينتظر موته.

* * *

شَدَتْ المطربة اللبنانية ذات القبعة الكبيرة العريضة الواسعة، بكلمات عن المصري والمصريين، وعن أنهم بالفعل وحقًا وأكيد ملوك الجدعنة. وصل إليه الصوت واللحن مرةً من عند الجيران، وأخرى من عند الفاكهاني، وثالثة من سيارة عابرة متمهلة يقودها صبية يرفعون العلم المصري الساتان اللامع بعد فوز المنتخب الكروي بكأس الأمم، تأنى في الإنصات محاولاً الاستماع والاستمتاع:

لو سألتك إنت مصري تقوللي إيه؟!

تقوللي مصري ابن مصري وابن مصر الله عليه

ملوك الجدعنة ودي حاجة في طبعهم

أنا مصري .. وأبويا مصري بسماري ولوني مصري

وكل مصري الله عليه!

وقتها كان يخلع ملابسه استعدادًا لارتداء البدلة الميري، لزوم الشغل أي شغل، لكنه توقف، تمهل، حدّق في مرآة الدولاب نصف المظلمة، المشروخة. كانت قد فقدت قدرتها على عكس الصورة صحيحة. لاحظ نحافته غير العادية، ساقيه كانتا كعودي قصب، ركبتاه البارزتان جدًا بدتا ككرتين عظميتين، بعض ضلوعه، بطنه المشفوطة إلى الداخل، ذراعيه الرفيعتين ... بدا الكل هيكلاً عظمياً يتنفس تأمل نحوله وضمور عضلاته. أخرج من دولابه الفوضوي جدًا مجموعة هلاهيل مختلفة الشكل واللون،

ارتداهـــا فوق بعضها، وكأنه البلياتشو، راقات فوق راقات، داخلي على خارجي، صيفي على شتوي، دون تفكير، حتى صار منتفخًا، أعجبته الهيئة، ارتدى فوق كل ذلك البدلة الميري البيضاء، وضع الكاب فوق رأسه، وعلى الرغم من أن رقبته النحيلة جدًا كانت قد كشـــفته، إلا أن هيئـــته الجديـــدة قد أعجبته للغاية فمشي يتراقص ويتهادي ويتمايل مدندنًا:

يا رب تحميها .. مصر ...
يا رب خلّيها .. مصر
انصرها .. عليها
واحميها من كل شرّ

كـــان يصـــرّ ويجـــزّ على أسنانه مخرجًا أنفاسه وطاقته من صـــدره وحـــنجرته، وهو يهتف في ختام الكوبليه: مصر. وكأنه بـــالفعل كـــان محتاجًا لأن يحزق وينتفخ ويتورم، يصيح ويتشنج. تمشـــى حـــتى بـــاب الشقة، فتحه ثم أوصده خلفه؛ فصرّ صريراً مخيفًا. نزل على السلالم مهابًا كبيرًا حتى وصل إلى الردهة، نظر بطـــرف عينـــيه إلـــى غرفة البواب؛ فوجد أولاده الثلاثة المتبقين يضـــحكون ويـــتغامزون فلم يعرهم اهتماما، ومضى يمشى مشية الأوز، ذراع فوق ممدودة، وذراع تحت إلى الخلف، ساق ممدودة بطولهـــا تـــدب بالكعب على الأرض، والأخرى تستعد، كان كل شيء مشدود وممدود، الرقبة الرأس العنق والجسم. عدّى الشارع

فسرت الهمهمة وتنقل الخبر بين الفاكهانى وصاحب السوبر ماركت وصبيانه، وصبيان المكوجية ... دار في دماغه ديالوج سريع لم يعرف كيف يوقفه:

■ شادي عبد الموجود، إنت ضيعت عمرك ليه؟ عمرك الطويل اللي عشته، عشته ليه؟! ربنا ها يحاسبك عليه، ها يحاسبك علـى فلوسك، صرفتها في إيه. صحتك عملت فيها إيه؟ المصيبة إنك عامل ناجح، لكنك بني آدم غريب عايش بشكل عشوائي، أيوه، ما عملتش حاجة خالص، لا نفعت نفسك، ولا نفعت أهلك، أهلك اللي عملوك ودخلوك الكلية عشان تبقى بيه، طيب إنت عملتلهم إيه، إنت إنسان فاشل في كل حاجة... رغم الهيئة والهيبة أنا مش عاجب نفسي خالص، حتى لو تخنت بالهدوم، حتى لو غنّيت زي نانسى عجرم، المفروض أكون نافع لأهلي، أنا هربت من بلدنا وجيت أعيش في أوسخ حتة فى مصر. المفروض إن أنا صاحب سلطة ومكانة، لكن الحقيقة إن أهلي الفلاحين البسطاء لسّه بيصرفوا علـيّ، الناس بتقولي يا سعادة الباشا، وأنا لا باشا ولا حاجة، أنا قناع محشي هدوم، أنا حلَة محشي حمضانة، وفي تناقض كبير جداً بين الظاهر للناس وبين اللي جوايا. الحتة دي عاملة لي واقعة جامدة DROP. أنا مش عايز أتحمل أي حاجة، لا جواز، ولا سواقة عربية ولا حاجة، باتحجج بكل حاجة، ما قدرش أتحمل مسؤولية أسرة وأولاد، راضي بالأكل المعلب،

والعيشـــة الهـــباب في الشقة المخيفة. لو تجوزت واحدة هتقوللى ودّينـــي وفســـحني وهات لي وأكلني ونام معايا، وأنا عارف إني ربمـــا افشـــل معاها، ... لأ... مش ربما.. ده أنا ها فشل معاها، وبعديـــن أهلها يحاسبوني ... أتهزأ واتبهدل، لكن لما تيجي واحدة شـــرموطة، مومس، خمس دقائق، يبقى نفعت نفعت، ما نفعتش ما نفعتش، ها تاخد الفلوس في ساعتها، وإلا حتى ما تاخدش، هاتتكل علـــى الله، لا تعرفني ولا أعرفها، لكن الزوجة ها تبقى حكاية، لو تكـــرر معاها الإخفاق، مرة، اثنين وتلاتة، شكلي ها يبقى وحش. عشـــان كده أنا بهرب من حتة الجواز دي. الإخفاق والفشل مش جديد عليَ. الإخفاق الجنسي هوَ اللي جديد، يعنى من خمس سنين كده، ما هو كل الفشل والإخفاق بيغذى بعضه، بيعدي يعني..

اختلطت كلمات شادي عبد الموجود بصوت موتور الأتوبيس المتحشـــرج، حـــركة الســـير والـــركاب، هتافات مشجعي الكرة، وصـــراخ أهالي ضحايا العبارة، عويل الذين انهارت حياتهم بعد أنفلونزا الطيور.

كان منظره المنتفخ بالهدوم غريباً. قرر الكمساري سؤاله عن الكارنيه. حاول شادي عبد الموجود أن يضغط الكلمات لينهره عن الســـؤال، لكـــنه لـــم يفلح، حاول التملص، لكنه لم يعرف، توقف الأتوبـــيس. تجمـــع الركاب والسواق والكمساري ودفعوا بالكائن المنـــتفخ إلى عرض الطريق، سقط على الأرض، وتدحرج، كان

أشبه بالرجل الكاوتشوك، استقرت به الحركة بجوار حاوية الزبالة الأسـباني الأنـيقة بعـد أن سرقت عجلاتها الأربعة، فتدحرجت ونامـت على جنبها، احتضنها، تحسس جيبه ليطمئن على الكارنيه أي كارنيه ...بكى بشدّة. لكن لم يسمعه أحد.

مارس ٢٠٠٦.

أهم الكتب الأخرى للمؤلف

قصص قصيرة :

- الطير يهاجر إلى كون سرمدى – الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦.
- البنت و النورس – إصدار خاص – ١٩٩٠.

سياسة وعلم نفس:

- سيكولوجية الإرهاب السياسي -إصدار خاص ١٩٩١.
- الصحة النفسية للأسرة – الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٧.
- مشاهد من على كرسي الطبيب النفسي – مكتبة الأسرة – الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٤.
- الاضطراب الجنسي : الأبعاد النفسية لدى الرجل و المرآة – دار الهلال ٢٠٠٢ القاهرة .
- كل ما يجب أن تعرفه عن الصرع – الدار العربية للنشر و التوزيع – الدوحة١٩٨٩.

د.خليل فاضل

www.drfadel.net

kmfadel@gmail.com



